ميخائيل نعيمة

مذكّرات الأرقش

نوفل

مُذكّرات الأرقش

الطبعة التاسعة
١٩٩٢

نوفل
بناية نوفل - شارع المعماري
تلفون: ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ - تلكس ٢٢٢١٠ نوستن
ص.ب ١١/٢١٦١ - بيروت - لبنان

توطئة

مَن هو الأرقش ؟

لجأت مرّةً وصديقاً لي إلى مقهىً عربي في نيويورك لنحتمي فيه من المطر . ولم تكُ أقدامنا وطئت أرض ذلك المكان من قبل . فوجدناه خالياً من الزبائن . وجلسنا بعد أن طلبنا من صاحبه قهوة نتسلّى بها ريثما تحقن السماء قِربَها أو يخفّ المطر قليلاً . وما هي إلاّ هنيهة حتّى جاءنا صاحب المقهَى بفنجانين من القهوة العربيّة . وممّا لفت نظرينا أنّه كان يمشي متمايلاً ذات اليمين وذات اليسار كالسكران ، أو كمَن يمشي على شظايا من الزجاج برجلين عاريتين . فلم يضع القهوة أمامنا حتّى ارتمى على كرسيّ بجانبنا وقال متنهّداً :

« واحسرتاه عليك يا أرقش ! . . »

وعندما رأى علامة الاستفهام على وجهينا تنهّد ثانية وتابع كلامه :

« أهلكني هذا الروماتزم . أهلكني ولم يترك لي حالاً . لما كان الأرقش عندي ما كنت أهتّم بشيء . كنت أجلس على

كرسيّ أدخن نارجيلتي وأقبض فلوساً لا غير . أمّا اليوم فأصبحت مضطرّاً أن أخدم الزبائن بنفسي ، وأن أروح وآتي . . . ألا تعرفان الأرقش ؟ . . »

وقبل أن يسمع منّا جواباً تنهّد ثالثة وقال متابعاً حديثه :

« خدم عندي ثلاث سنوات . ثلاث سنوات بكاملها . أتاني في نهار مثل هذا النهار ، نصف عريان ، ولا ما يغطي رأسه ، والمطر ينساب سواقي من كل خيط على بدنه . قلت : ماذا تريد يا بنيّ ؟ قال : أتقبلني عندك خادماً ؟ فقلت في نفسي : إنّها حسنة لوجه الله . وأنا في حاجة إلى خادم ، فليخدم لنرى خيره من شرّه . قلت : أتخدم لقاء مؤونتك لا غير ؟ فهزّ رأسه بالقبول . حينئذٍ أخذته وأدفأته وأطعمته وجفّفت ثيابه وبدأ يشتغل . وما هو إلاّ يوم أو يومان حتى أصبح يعرف عن الشغل قدر ما أعرف مرّتين . بعد شهرين جعلت له مرتباً شهريّاً قدره عشرة ريالات مع أكله وشربه . وبعد سنة رحت أُعطيه خمسة عشر ريالاً . وقبل أن تركني بشهر زدت له خمسة ريالات أخرى . أما هو فمسكين . لم يطلب زيادة من تلقاء نفسه ولا مرّة . ولا سمعته مرّة يتذمّر من شيء . بل كان أبداً قانعاً يشتغل من كلّ قلبه . أوّاه واحسرتاه عليك يا أرقش ! »

وسكت محدّثنا . وكأنّي لمحت بريق دموع في عينيه .

فسألته عن اسم الخادم وأوصافه الخارجيّة علّني أهتدي إليه ولو مصادفة . فهزّ رأسه يميناً ويساراً وأجاب :

« لو كنت أعرف اسمه وأصله وفصله لما كان قلبي حزيناً . هو قصير . نحيف البنية للغاية . شعره أسود طويل . عيناه سوداوان كبيرتان غارقتان تحت حاجبيه . وجهه مشوّه بالجدري . لذاك لقبناه بالأرقش . نسأله عن اسمه فيجيب – لا أعرف . اسم أبيك – لا أعرف . من أين أنت وكم لك من العمر – لا أعرف . أغرب منه بين الناس لا رأت عيني ولا يمكن أن ترى ، مجنون ؟ كلا . ما هو بالمجنون . يكتب ويقرأ العربيّة والإنكليزيّة والإسبانيوليّة والفرنسيّة ، والله يعرف ماذا بعد . إنّما لا تقدر أن تجعله يفتح فمه ولا بألف حيلة ، يروح ويجيء ساكتاً . تطلب منه غرضاً فيأتيك به كالبرق ، ولكن ساكتاً .

« خدم عندي ثلاث سنوات . فما كان يكلّمني أو يكلّم النّاس إلاّ نادراً بأكثر من « نعم » و « لا » . وحين لا يكون عندنا زبائن كان يجلس وحده على كرسيّ ويسند رأسه بيديه ويأخذ يحملق في الأرض أمامه ساعة ، ساعتين ، ثلاث ساعات ، وهو يكاد لا يتحرّك كأنّه مسمّر في مكانه ، أو كأنّ عينيه من زجاج . لا ، لا . أغرب ممن هذا الرجل ما رأيت ولن أرى . لا يأكل لحماً ولا سمكاً . بقي عندي سنتين وما كان

يخرج من المحل إلاّ قليلاً . أمّا في المدة الأخيرة فقد أخذ يروح ويجيء . »

عندها بلغت الدهشة مني ومن صديقي منتهاها . وراح يتأكّلنا الشوق إلى معرفة أكثر ممّا عرفناه عن ذلك الرجل الغريب . فسألنا محدثنا أن يطلعنا على عنوان البيت الذي كان يسكنه خادمه . فنهض للحال وقادنا إلى وراء حاجز من الخشب في مؤخر المقهى . وهناك أنار قنديلاً من الغاز قائلاً :

« هنا كان يسكن . وهنا كان يقضي لياليه . »

تأملنا المكان حوالينا فإذا به مزدحم بصناديق من الخشب وعلب من القهوة مبعثرة هنا وهناك وزجاجات مرطّبات ومشروبات روحيّة . خلا زاوية رأينا فيها لوحين من الخشب ممدودين فوق صندوقين وعليهما ملاءة من المقصور ولحاف من الصوف ووسادة . وبجانبهما صندوقان — الواحد فوق الآخر — مغطيان بجرائد عربيّة فوقها زجاجة من الحبر ، وبجانب الزجاجة قلم . وفي زاوية أخرى مغسلة ومستودع للفناجين والصواني والكؤوس وموقد غاز لإعداد القهوة . فتضاعفت دهشتنا لما رأيناه . وسألنا صاحب المقهى متى ذهب خادمه ولم يرجع . فأجاب أن قد مرّ أكثر من أسبوعين على غيابه . وإذ حاولنا أن نعزّيه بقولنا إن خادمه قد يعود قريباً ، هزّ رأسه طويلاً وتنهّد عميقاً وقال :

« مات الأرقش ، مات . لو كان لا يزال حيّاً لرجع قبل الآن . واحسرتاه عليك يا أرقش ! »

وقفت وصديقي حائرين مبهوتين . وكان المطر قد انقطع . فهممنا بالخروج . ولكن خطر لي وأنا في الباب أن أسأل صاحب المقهى عمّا إذا كان الأرقش لم يترك بعده أثراً أو شيئاً من حطام الدنيا . ففكّر قليلاً ، وحكّ رأسه على مهل ، ثم انطلق متأوّهاً إلى ما وراء الحاجز الخشبي وعاد بصندوقة صغيرة قائلاً :

« هذا كلّ ما تركه . »

وقبل أن نسأله أمراً فتح الصندوقة فإذا فيها كتاب العهد الجديد ودفتر بسيط . فتناولت الدفتر وإذا بي أقرأ على غلافه كلمة « مذكراتي » مكتوبة بأحرف كبيرة ، وأجد فيه عدداً مطويّاً من جريدة أجنبيّة . وقبل أن أهتم بمعرفة ما تحتويه تلك المذكرات سألت صاحب المقهى إذا كان يرضى أن يبيعني الدفتر . وكنت مستعدّاً أن أدفع له مهما طلب منّي . لكنّه رفع إليّ نظره بدهشة شديدة وقال :

« أبيعه ؟ ! — وهل هو من الجواهر كي أبيعه ؟ إن هو إلاّ دفتر بسيط . بارك الله لك فيه . فصاحبه — واحسرتاه عليه ! — راح ولن يعود . أمّا أنا فلا كتابة ولا قراءة . بارك الله لك فيه يا أفندي . فقط اذكرونا من حين إلى حين .

وتفضّلوا شرّفونا . أهلاً وسهلاً بكم . المحل محلّكم . اجعلوها عودة . »

فوعدناه خيراً وانصرفنا . وأنا أكاد لا أتصبّر حتّى أبلغ بيتي لأطالع مذكرات الأرقش .

أمّا الآن وقد تلوتها بدل المرّة مرّات ، وقد انقضى على غياب صاحبها رَدَح من الدهر ، فلست أرى بأساً من نشرها لعلّ بعض القرّاء يجد فيها مثل ما وجدته من المتعة والسلوى .

وأمّا طريقة الأرقش في تدوين مذكراته بذكره أيّام الأسبوع لا غير دون تاريخ اليوم والشهر والسنة فلا يمكنني الاعتراض عليها وإن لم أفهم الغاية منها .

هذا كل ما أعرفه عن الأرقش . فلا تسألوني زيادة .

م . ن .

مذكرات الأرقش

الاثنين

الناس قسمان : متكلّمون وساكتون .

أنا قسم الإنسانيّة الساكت . وما بقي فمتكلّمون . أمّا البُكم والرُّضّع فلغاية ختمت الحكمة الأزلية على أفواههم فلا يتكلّمون . في حين أنّي ختمتُ على فمي بيدي . وقد أدركت حلاوة السكوت ولم يدرك المتكلّمون مرارة الكلام .

لذاك سكتّ والنّاس يتكلّمون .

الأربعاء

أنا ناسك بين النّاس . والتنسّك بين النّاس أين من هوله التنسّك بين الوحوش . فأنت تستطيع أن تأمن جانب الوحش وأن تكسب أُلفته باللّين والمحبّة . وإن أخفقت وغضب الوحش عليك فهو لا يمزّق منك غير جسدك . أمّا النّاس فيحسبون اللّين والمحبّة منك ضعفاً ، ويتحاشون إلحاق أقلّ ضرر بجسدك الفاني خوفاً من قوانين سنّوها . في حين يستحلّون جعل روحك الأبديّ مشاعاً للشارد والوارد . ولا قانون

يصدّهم ولا محكمة . لذلك تركت جسدي مشاعاً لألسنتهم وسيّجتُ روحي بالسكوت .

رأوا آثار الجدري في وجهي فلقّبوني بالأرقش . أمّا روحي الملتفّ بالسكوت ، البعيد عن أبصارهم الكفيفة ، فلم يجدوا له اسماً . لذاك يحسبونني مختلّ الشعور . ولكنني من وراء سكوتي أستطيع أن أبصر ما في قلوبهم وأقرأ ما في أفكارهم ، لأنّني أحكم على أفكارهم لا بما ينطقون بل بما لا ينطقون .

لذاك سكتّ والنّاس يتكلّمون .

الخميس

« ما ذاك فكري . »

لكم يؤلمني كلّما سمعت أحداً يتكلّم باجتهاد وحدّة وإخلاص ثمّ يعود فيقول لسامعه أو سامعيه : « ما ذاك فكري . »

ولو أُحيل الأمر إليّ لوضعتُ في آخر كلّ كتاب سطّرته يد بشريّة ، ونقشتُ على كلّ تمثال نحته مثّال ، وصورة مدّ خطوطها مصوّر ، وخطاب فاه به خطيب ، وقصيدة نظمها شاعر ، ومقال حبّره كاتب ، وعبارة نطق بها ناطق ، هذه الكلمات الثلاث : « ما ذاك فكري . » ولماذا ؟ لأن بيان

النّاس من أيّ نوع كان ، ومهما بلغ من الدقة والرقة ، ما يزال أضيق من أن يتّسع لجميع مشاعرهم وأفكارهم . فهم أطفال يلثغون . وأنا وإن كنت أكتب هذه المذكرات لنفسي لا للنّاس ، سأضع في آخرها : « ما ذاك فكري . »

الصدق بالنيّات لا بالبيان . والنيّات يحجبها البيان . لذلك كان النّاس في عذاب مستمرّ وقد اختلط عليهم صادقهم وكاذبهم . أمّا أنا – قسم الإنسانيّة الساكت – فكيف أكذب ؟ إنّما تكذب النيّة الصالحة ببيانها الفاسد، وتكذب النيّة الفاسدة ببيانها الذي يقلّد الصدق .

الكلام مزيج من الصدق والكذب . أمّا السكوت فصدق لا غش فيه .

لذاك سكتُّ والنّاس يتكلّمون .

الجمعة

من صدّق الكذوب فقد اقتص منه .

السبت

أنا إنسان صغير مجهول . لي وجه كرقعة من الخشب نخرها السوس . هكذا أظهر في عيون النّاس ، وهذا كلّ ما يعرفه النّاس عنّي . فلماذا لا يكتفون بذلك ؟ إذا نادوني

«يا أرقش ، هات ٥ قهوة ، أو هات ٣ وسكي يا أرقش ، أو ورق بوكر يا أرقش » آتيهم بالقهوة والوسكي وورق البوكر . فما بالهم لا ينفكّون يسألونني عن اسمي واسم أبي وأُمّي وبلادي وعمري الخ الخ ؟ فهل إذا عرفوا أن اسمي يعقوب أو زكريا أو يوسف انقلبتُ في أعينهم فما بقيتُ إنساناً مجهولاً ولا بقي وجهي رقعة من الخشب نخرها السوس ؟

أنا لا أعرف لذاتي اسماً ولا أرضى أن أُعرَف باسم واحد . لأنّني أولد ولادة جديدة كلّما تولّد في رأسي فكر جديد . وأفكاري تتولّد بسرعة البرق . إن أكن الآن داود فأنا بعد طرفة عين سليمان . وبعد طرفة أخرى لست سليمان بل شمشون . فأنا بما أُفكّر قبل أن أكون بما أعمل وبما يظهر منّي . والفكر لا يستقرّ على حال . فهو كالريح تهبّ فوق المروج فتشمّ منها رائحة المروج . وعلى المزابل فتأتيك برائحة المزابل . وما دمتُ فكراً متجسّداً لا جسداً مفكراً فأنا في كل لحظة ، أو أقلّ منها ، إنسان جديد ، أمّا جسمي ، وإن تغيّر ، فتغيّره بطيء . والخشبة التي نخرها السوس لا تعود صقيلة . لذاك أنا « أرقش » وسأبقى « أرقش » إلى أن أخلع هذا الثوب وأرتدي سواه . أو كما يقول النّاس — إلى أن أموت .

النّاس في حاجة إلى الأسماء ليدوّنوا تواريخهم السخيفة ، ويديروا محاكمهم وحكوماتهم الصغيرة ، وينظموا علاقاتهم

بعضهم ببعض فيعرفوا أن هذا البيت لأحمد وذلك البستان لبولس ، فلا يجوز لي – أنا الأرقش – أن أقتلع منه بصلة لأتبلّغ بها ، أو أن ألجأ إلى زاوية من زوايا ذلك البيت حتّى وإن كانت العواصف تولول والثلوج تنهمر وأنا في الشارع تصطكّ أسناني من البرد ولا ملجأ لي ولا مأوى .

ليت شِعري ، ماذا يحلّ بالنّاس لو هم أفاقوا ذات صباح ونسي كلّ منهم اسمه وأسماء غيره ؟ أما تنشلّ حياتهم بانشلال سجلاّتهم ؟ فواحدهم يحيا باسمه ولاسمه لا للحياة وبما فيه من قوّة الحياة . وهو يشعر أنّك لو محوت اسمه من سجلّ النّاس فكأنّك محوته من سجلّ الحياة .

وهل يدرك النّاس يوماً أن سجلاتهم ليست سوى كتابة على الماء ، وأن لا سجلّ يدوم إلاّ سجل الكون الرهيب حيث لا ينطلق صوت ، ولا تُذرف دمعة ، ولا تصعد زفرة ، ولا يولد فكر ، ولا تُلفظ كلمة ، ولا تتحرّك شهوة إلاّ تنطبع على صفحاته الأبديّة ؟ هنالك لا أسماء ولا ألقاب ، ولا أنساب ، ولا رتب ، بل أعمال وأفكار وعواطف لا غير . متشابهة ولكنّها مختلفة ، ومتحدة ولكنّها منفصلة . ومدوّنو السجلّ الأعظم يميّزون بين هذه وتلك نظير ما يميّز الأثريّ الماهر بين خطوط إبهامي وخطوط إبهام سواي .

أنا الآن في عرف « شين »[1] وزبائنه أرقش — لا أكثر ولا أقلّ : إنسان صغير مجهول له وجه كخشبة نخرها السوس . لا نفع منّي إلاّ لتقديم القهوة والوسكي وورق اللعب وغسل الفناجين وكنس المحل . لكن لو قلت لهم غداً إن اسمي عبد الرحمن باشا البغدادي لانقلبت الآية فأصبحوا الخدم وأصبحت السيّد .

دع النّاس يسجّلوا أسماء النّاس . أمّا أنا — قسم الإنسانيّة الساكت — فقد رضيت بما تدوّنه الأقدار عنّي في سجل الكون العظيم .

لذاك سكتُّ والنّاس يتكلّمون .

السبت

متى يزول عنّي هذا الرجفان ؟

جسمي كآلة حُلّت لوالبها . يداي ترتجفان . أسناني تصطكّ . لا أملك عضلاً من عضلاتي . مطارق في قلبي . رئتاي منفخ حدّاد . القلم لا يثبت بين أصابعي . عبثاً ، عبثاً أحاول الكتابة .

مَن هي ؟ ولماذا ؟ الأفضل أن . . .

---

١ استخلصت مما يلي من المذكرات أن المقصود بـ « شين » هو صاحب المقهى . م. ن.

لا . لا . هذا فوق طاقتي . ماذا تبتغي منّي هذه الفتاة ومَن هي ؟ هجرت الأرجنتين فراراً منها . فما أدراها أنّني في نيويورك ، ومن هداها إلى صومعتي ؟

جلست لأكتب بعد أن انصرف الجميع — ولم ينصرفوا حتّى الثالثة بعد نصف الليل . أنرت قنديلي وأخذت قلمي بيدي فيبست يدي . وللحال شعرت أنّني لست وحدي . فسَرت القشعريرة في بدني ، وانتصب الشعر على رأسي . حاولت أن ألتفت إلى الوراء فلم أقدر . وإلى اليمين واليسار فلم أقدر . فجمد الدم في عروقي وتباطأت دقات قلبي حتّى كادت تنقطع . حاولت أن أنهض فلم أقدر ، وأن أفتح فمي فلم أتمكّن . فجمدت كالحجر . وأخيراً أملت نظري إلى اليمين فرأيتها .

عادت القشعريرة إليّ . أصابعي تأبَى أن تطيعني . فلأسترح.

هي . هي . ما تغيّرْ فيها شيء منذ ظهرت لي لأوّل مرّة . وذلك الجرح الواسع في نحرها لم يلتئم حتّى الآن . والدم ما يزال يتدفّق منه . وذلك الحزن العميق الجامد في عينيها الواسعتين ما يبرح عميقاً وجامداً ورهيباً . شعرها الأسود الطويل ما يزال مسدولاً على كتفيها . ونهداها ما يزالان نافرين من تحت ردائها الأبيض الشفّاف . ويسراها ما تزال على نحرها كأنّها تحاول وقف الدم المتدفّق من جرحها الهائل .

وجهها كالعاج – لا حياة فيه . لكنّ عينيها . . . رفعت نظري إليهما فخُيّل إليّ أن كلّ أحزان البشريّة وآلامها تحدّق إليّ من خلف أهدابهما . جامدتان لا تتحرّكان . لكنهما أعمق من اللُّجّة . لا انتقام فيهما ولا ثورة ولا مرارة – بل حزن لا قرار له . وسؤال . . . بل توسُّل . . . لماذا تتوسّل إليّ ؟ وماذا أستطيع أن أفعل من أجلها ؟

ما أهول الحزن العميق الساكت ! وهذه المرأة هي أقنوم الحزن والسكوت . يخيّل إليّ أنّها لو فتحت فاها لتفجّر الحزن من عينيها كالسيل . وحينئذ لما ارتجفت أعصابي . لكنها ساكتة . وسكوتها يرعبني . أنا كذلك ساكت . ولكن سكوتي لا يرعب النّاس . أمّا سكوتها فكلّه رهبة وقشعريرة .

وقفَتْ بجانبي ، ولا أدري كم طال وقوفها – ألحظة أم دهراً . وكما ظهرت بغتة اختفت بغتة . وتركتني مرضّض الجسم كأنّي هبطت من بين مخالب نسر في قبّة الفلك .

أمر عجيب غريب . كلّما زارتني هذه الفتاة شعرت كأنّ ضباباً كثيفاً يكتنف أفكاري . والأغرب من ذلك أنّه كلّما طال وقوفها بجانبي شعرت بالضباب ينقشع رويداً رويداً عن أفكاري . ثمّ شعرت كأنّ قرابة بعيدة تربطني بها – كأنّي رأيتها من قبل . كأنّي عرفتها . كأنّ بيني وبينها صلة . وأحياناً أكاد أذكر أين رأيتها ، وكيف عرفتها ، والصلة التي

تربطني بها . وإذ توشك الغشاوة أن تنقشع عن أفكاري تماماً أطلبها فلا أجدها .

صبراً يا أرقش . فبالصبر والسكوت تنال كل شيء .

الأحد

سكوت .

الاثنين

سكوت .

الثلاثاء

سكوت .

الأربعاء

لقد اشتاقت نفسي عرائس الليل . وصومعتي لا نافذة فيها أرقب منها النجوم . ولو كانت فيها نافذة لما مكّنتني من رؤية كوكب واحد . لأنّ يد الإنسان قد فعلت كلّ ما في وسعها لتحجب النجوم عن عينيه . لذاك خرجت الليلة إلى شاطىء البحر . فجلست هناك ورفعت بصري إلى فوق . وهكذا صرفت الليل كلّه ناسياً أنّني خادم في مقهى .

« لهم عيون ولا يبصرون . ولهم آذان ولا يسمعون » — وماذا يبصر النّاس أو يسمعون ؟ كانوا يمرّون من حولي بالمئات وأبصارهم لا ترتفع عن الأرض ، وآذانهم لا تسمع سوى دندنة أصواتهم وثرثرة ألسنتهم التي لا تكلّ ولا تملّ من التحدّث عن حاجاتهم الجسديّة وشهواتهم الأرضيّة وآمالهم الحقيرة .

سمعت واحداً يقول : ما ألطف هذه اللّيلة ! وهو يعني أنّها دافئة . والبشر يقيسون الطبيعة بميزان الحرارة . وسمعت آخر يقول : ما أجمل النجوم ! لكنّه كان ينظر إلى ما بين قدميه .

أنا والنجوم — تلميذ وأستاذ . فيها رأيت مجد الله . ومنها عرفت عظمتي كصورة الله ومثاله وحقارتي كتراب .

أنا والنجوم عالمان لا متناهيان . والعالمان يؤلفان عالماً واحداً لا متناهياً هو الأرقش — ذلك الإنسان الصغير المجهول الذي له وجه كرقعة من الخشب نخرها السوس .

أمّا النّاس فلا يفهمون أن مَن ينظر إلى النجوم يجب أن ينظر إليها بخشوع وصمت .

لذاك سكتّ والنّاس يتكلّمون .

السبت

لم يكد شين يفتح الباب صباحاً ويراني حتى انهال عليَّ بالتقريع والشتائم السفيهة :

« أين كنت مقبوراً البارحة يا أرقش النحس ؟ كيت وكيت منك ومن أمّك وأبيك ! أنت سوف تخرب بيتي . ملعونة الساعة التي رأيتك فيها . الحقّ عليّ لأنّي آويتك وأطعمتك وسقيتك وأعطيتك معاشاً فوق ذلك . كيف تركتني اللّيلة البارحة وأنا مربَّط لا أقدر أن أتحرّك ؟ أين كنت مقبوراً ؟ الخ . . . »

وبماذا أجيبه؟ هل أقول له — ولا همّ له في الحياة إلاّ نقل المال من جيوب الغير إلى جيبه — إنّي كنت أرقب النجوم ؟ وكيف لي أن أُفهمه أن مسامرة النجوم والأمواج أجدى من طبخ القهوة وتقديمها للزبائن وقبض الفلوس منهم ؟

قناعة الجسد فضيلة . أمّا قناعة الروح فجريمة .

وشين قنوع بروحه طموح بجسده . إذا مرّت ليلة ولم تجرِ عنده لعبة قمار اكفهرّ وجهه ، وغارت عيناه ، وتدلّى شارباه وجلس كأنّه الهمّ بعينه يندب حظّه وسوء طالعه . ثمّ تشتدّ عليه أوجاع « الروماتزم » وتكثر حاجات أولاده ومطالب زوجه ولوازم بيته وتكاليف شغله وديونه . أمّا اللّيلة

التي يرى فيها زمرة لا بأس بها من مبذّري الأموال والأعمار ودافني الوزنات المعطاة لهم من الله فتنبسط أساريره ، ويرتفع طرفا شاربيه ، وتخرج عيناه من تحت حاجبيه الكثيفين ، وينسى «الروماتزم» وزوجه وأولاده ، وتقلّ حاجاتهم وتكاليفه . فيأخذ نارجيلته ويجلس باسماً ، واضعاً رجلاً فوق رجل . ويبدأ بإعطاء الأوامر للأرقش : يا أرقش خذ . يا أرقش هات .

أمّا زبائن شين فكأنّ الله جعلهم من طين ونسي أن ينفخ فيهم من روحه . إلاّ سنحاريب . ذاك هو الاسم الذي يُعرف به في المقهى . أمّا اسمه الحقيقي فلا أعرفه . وقد وجدتُ ما يشبه القرابة بيني وبينه . وشعرت غير مرّة بدافع يدفعني إلى مكالمته . ولكنّني لم أكلّمه . ولن أكلّمه .

يمشي هذا الرجل على الأرض سرّاً مكتوماً . وأنا كلّما نظرت إليه أبصرت أمام عيني علامة استفهام كبيرة . هو من الزبائن الدائمين . لا تكاد تمضي ليلة إلاّ نراه فيها عندنا . فلا العواصف تقعده عن المجيء ، ولا الثلوج ، ولا الأمطار ، ولا الحرّ ولا القرّ . يأتي كلّ مساء نحو الثامنة فيطرح سلامه على شين ويجلس على كرسيّ بقرب الشبّاك ثمّ يطلب قهوة فيمتصّ منها مصّة ويشعل سيكاره ويفتح جريدته ويقرأ . ولا يرفع أنفه الطويل الأقنى عن سطورها حتّى يجتمع رهط

من المقامرين ، فيناديه أحدهم : سنحاريب . ما قولك بلعبة بوكر ؟ وحينئذٍ ينهض على مهل ويأخذ كرسيّاً ويجلس إلى طاولة القمار . وهناك يبقى صامتاً ، جامداً ، غارقاً في اللّعب إلى أن ينهض الجميع وينادوا بالذهاب . فينهض ويخرج معهم غير آبه للربح أو للخسارة .

كلامه قليل للغاية . صوته مختنق يكاد لا يُسمع . حركاته بطيئة ، متثاقلة ، متقطّعة . وجهه مكفهرّ ، هزيل كأنّ خدّيه قد شُدّا بأسيار من الداخل . أصابعه كأصابع المذراة . ولباسه قديم تقطّعت أكثر أزراره . أمّا عيناه ففيهما نور كنور القمر — هادىء ، بارد ، عميق ، محزن . أنا أرقب كل حركاته وأسعى أن ألفت نظره إليّ . لكنه يأتي ويروح وكأنّه لا يشعر بوجودي . الكل يتهكّم عليه . وهو يقابل تهكّمهم ببرودة عجيبة وأحياناً يشاركهم في التهكّم .

لقد وجدت في سنحاريب تعزية كبيرة وإن كنت في غنًى عن تعزية البشر .

الجمعة

قال الجاهل في قلبه : « ليس إله . »

وإله الجاهل بجهله .

وماذا ، تُرى ، يقول سنحاريب ؟ خطر لي اليوم أن

أطرح عليه هذا السؤال لكنّني عدت فارتدعت .

من طبيعة الإنسان إنكار ما يجهل . فعلامَ لا ينكر نفسه ؟ ومِن جهل الإنسان أنّه يسعى إلى المعرفة بحواسّه الخارجيّة لا غير . وحواسه الخارجيّة لا تتعدّى ظواهر الأمور . وهي محصورة ومحدودة . فكل ما تتناوله محصور ومحدود . وهي خدّاعة . فكل ما تحسّه خِداع . أمّا الحواس التي لا تستند إلى عينين وأذنين ويدين ومنخرين ولسان فهي في عرف الناس أوهام وأضغاث أحلام . ولو قلت لأحدهم إن له عيناً باطنيّة ، وأذناً ليست من لحم ودم ، وإنّه بالتأمّل والسكوت يبصر ما لا تبصره العين ويسمع ما لا تسمعه الأذن — لو قلت له ذلك لرماك بالطيش والجنون . وكيف لمن يبصر ما لا يبصره النّاس ويسمع ما لا يسمعونه إلاّ أن يكون مجنوناً في عرف الناس ؟

كثرة الكلام ملهاة للفكر . والبشر يهربون من السكوت والتأمّل . فأنّى لهم أن يدركوا الله ؟ والذين ينادون باسم الله من غير أن يدركوه بالتأمّل والسكوت — من غير أن يجدوه في أنفسهم — إنّما ينادون باسمٍ لا مسمّى له . ولو أن البشر عرفوا الله لما قسموه إلى عبراني ومسيحي ومسلم وبوذي ووثني . ولما أهرق إنسان دم إنسان ، ولا أبغض إنسان إنساناً من أجل الله . وما انقسم البشر مللاً ونحلاً إلاّ لأنّهم حاولوا المستحيل فحدّدوا الله الذي لا يُحدّ بلغاتهم المحدودة، وقاسوا

ما لا يقاس بمقاييس بشريّة أرضيّة . وسيبقون كذلك إلى أن يدركوا قوّة الفكر ، وإلى أن يسكتوا متأمّلين ومتفاهمين بالأفكار لا بالألسنة . ويوم يدرك الإنسان قوّة الفكر ثمّ يستطيع تسييرها حسب هواه ، يومئذ يصبح في إمكانه أن ينقل الجبال ويحمل البحار على أكفّ الرياح .

وهل يتأمّل سنحاريب في سكوته ، أم أنّه ساكت لغاية في نفسه ؟

الخميس

يوم سكوت .

لو كان لي السلطان المطلق في الأرض لأمرت بيوم واحد في الأقل من كلّ سنة يكرّسه كلّ شعوب الأرض للسكوت والتأمّل . لكن هناك أمماً محنتها الثرثرة . فهذه أحتّم عليها الصمت شهراً كاملاً في كلّ عام .

الأحد

اليوم سألت نفسي : مَن أنا ؟

فكان الجواب صمتاً طويلاً عميقاً .

أنا إنسان . والإنسان يولد من أب وأم . فمن هو أبي ؟ ومن هي أمّي ؟

هل حملتني امرأة في بطنها تسعة أشهر ، ثمّ غذّتني بثديها ، وحرستني بحنوّها ، وأدفأتني بحرارة قلبها ؟ هل كانت تبسم لبسمتي ، وتتألّم لألمي ، وتسهر الليّالي فوق سريري ، وتدعوني باسم معلوم ، وما هو ذلك الاسم ؟ هل تبلّلت عيناها بالدموع عند فراقي ، وهل تعرف أين ابنها الآن ، وتفكّر به وتحنّ إليه ؟ أين هي تلك المرأة في هذه الدقيقة — أفي هذا العالم أم في ذلك ؟ من هي المرأة التي يمكنني أن أدعوها أمّي ؟

النّاس يعظّمون الأم ويمجّدونها ويكادون يؤلّهونها . فيبكون لفراقها ، وينوحون لموتها . وها أنا لا أعرف لي أمّاً ، ولا ينقبض قلبي عندما أفكّر بأن لا أمّ لي . فأنا أنا — بأمٍّ وبدون أمّ . وأنا أنا — بأب وبغير أب .

ثمّ ها أنا أردّد : أمّي ، أمّي ، أمّي ! وأبي ، أبي ، أبي ! وقلبي ساكن لا يتحرّك فيه وتَر فرح أو ترح .

أتراني وُلدت من غير أب وأمّ ؟

وأين وُلدت ؟

النّاس يدعون المكان الذي يولدون فيه « وطناً » . وهذه الكلمة مقدّسة في عرفهم . فهم يذرفون الدمع لفراق أوطانهم ويذوبون حنيناً إليها . ولماذا ؟ لأنّهم ألفوها . فالوطن ليس أكثر من عادة . والبشر عبيد عاداتهم . ولأنّهم عبيد عاداتهم تراهم قسموا الأرض إلى مناطق صغيرة يدعونها أوطانهم .

« هذا وطني وذلك وطنك . فالزم حدود وطنك ولا تتعدّ حدود وطني . وإن فعلتَ قابلتك بحد السيف . » والسيف ما يزال يحصد أعناق البشر من يوم استعبدوا لعادة الوطن ولصنم يعبدونه باسم « الوطنيّة » .

تاهاساكي وُلد في الجزر اليابانيّة من أب ياباني وأم يابانيّة . فهو ياباني والجزر اليابانيّة وطنه . ولذاك فالعالم في نظره ينقسم إلى قسمين : اليابان وغير اليابان . واليابان هي القسم الأفضل والأهمّ .

لكنّ هنغ لي كاي وُلد في الصين من أب صيني وأم صينيّة . فالصين وطنه . والعالم في عرفه ينقسم إلى قسمين : الصين وغير الصين . والصين هي القسم الأفضل والأهمّ .

وإيفان بورجينسكي وُلد في روسيا من أب روسيّ وأم روسيّة . فهو روسيّ وروسيا وطنه . لذاك ينقسم العالم في عينيه إلى قسمين : روسيا وغير روسيا . وروسيا هي القسم الأفضل والأهمّ .

وهكذا قل في سائر شعوب الأرض .

أمّا أنا — قسم الإنسانيّة الساكت — فما أدريْ، ولا يهمّني أن أدري ، أين وُلدت أو ممّن وُلدت . لذاك لا وطن لي . ولو كان لي وطن لتبرأت منه . فأنا ابن العالم الأوسع لا ابن جرم صغير ندعوه الأرض . ولو كانت الأرض بكاملها لي

ثمّ جاءني زنجي من إفريقيا يزاحمني على فترٍ منها لتخلّيتُ له عنها بأسرها .

وأمّا تاهاساكي فلو كان له نصف الأرض وكان لهنغ لي كاي النصف الآخر لقام يزاحم هنغ لي كاي على نصفه مدفوعاً « بعامل الوطنيّة وحبّ الوطن » .

الاثنين

ها هم النّاس قد اشتبكوا في حرب يقال إن التاريخ لم يشهد مثلها بعد[1] . وهم يموتون أشنع الميتات بالآلاف والملايين . ولماذا ؟ هل ضاقت الأرض بهم ؟ معاذ الله ! فالأرض هي هي . لا يقدرون أن يضيفوا إليها أو أن ينقصوا منها ذرّة واحدة ، سواء أكانوا ألف نسمة أو ألف ربوة . والأرض ما كانت يوماً أمّاً ولوداً حمقاء ، تلد فوق ما في استطاعتها أن تحضن وأن تغذّي . لكن النّاس ورثوا في الأرض ميراثاً مشتركاً فلم يتركوه مشتركاً ، بل اقتسموه ولا يزالون في خلاف على القسمة . ولئلاّ يقال إنّهم يتناهشون كالكلاب على عظمة ابتدعوا « الوطن وحبّ الوطن وشرف الوطنيّة » . والإنسان من شأنه أن يقتل أخاه الإنسان في سبيل ما يجهل كما كان ، وما برح ، يقاتله في سبيل الله . ولأن « الوطن والوطنيّة والشرف »

١ الحرب العالمية الأولى .

أسماء مبهمة عليه فهو يقاتل ويضحي بكل ما لديه من أجلها .

لعلّ أكره ما يكرهه النّاس الحرب . فهي في نظرهم شرّ عظيم . ولكنه شرّ لا مناص منه . وهي شرّ في اعتقادهم لكثرة ما يُهرق فيها من الدماء وما يُدمَّر من المساكن ويُتلف من الخيرات ، ثمّ لكثرة ما تسبّبه من الآلام للمحاربين وغير المحاربين بالسواء . ويا ليت شرّها اقتصر على ذلك لا غير . فالطبيعة من دأبها أن تعوّض عن الدم المسفوح بدم جديد ، وعن الأموات بالأحياء ، وعن الخيرات المتلفة بخيرات سواها ، وأن تكفّن الألم بأكفان من السلوان .

لكنّ شرّ الحرب الأكبر هو في قتلها الروح قبل الجسد ؛ بتحويلها قوى الإنسان عن عدوّ في نفسه إلى عدوّ خارج عنه . وما من عدوّ للإنسان غير نفسه . هكذا تقول الحرب لفون شوستر – مثلاً :

« اسمع يا فون شوستر . أنت رجل لا تعرف شيئاً عن نفسك ، وعن خالقك ، وعن غايتك من وجودك . وأنت كذوب ونمّام ومحتال . وأنت تشتهي ما لقريبك . فتسرق وتقتل ، وتزني بالفكر وبالفعل . وأنت تقامر وتسكر وتضرب زوجك لسبب ولغير ما سبب . وأنت معذَّب أشدّ العذاب بقلبك وفكرك وجسدك . ولكم سمعتك تتمنّى لو لم تولد . لا بأس يا فون شوستر . فهذه الأمور كلّها ليست بشيء .

لأنّك وُلدت في مونيخ . فأنت ألماني قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء . وألمانيا وطنك . وأنت ، من غير شك ، تحبّ وطنك ، وعاطفتك الوطنيّة حيّة .

« أوَتَعرف من هو عدوّك يا فون شوستر ؟ ما هو الجهل ولا السكر ولا الكذب ولا النميمة ولا الزنى ولا ضعف الإرادة ولا ضيق أبواب الرزق وما يسبّبه لك من سويداء ووجع . إن عدوّك هو « جان جاردينيه » ، لأنّه لم يولد في مونيخ ، ولا في بادن – بادن ، ولا في دانتسيغ ، بل وراء حدود ألمانيا . والأغرب من ذلك أنّه لا يتكلّم الألمانيّة ، ولا يأكل ما تأكل ، ولا يلبس ما تلبس ، ولا وجهه أشقر كوجهك . هذا هو عدوّك . فاستلّ سيفك واقطع عنقه . وحينئذٍ تنزل عليك السعادة في سلّة من السماء . »

وهكذا تقول الحرب لجان جاردينيه عن فون شوستر ، ولبورجينسكي عن تاهاساكي ، ولتاهاساكي عن هنغ لي كاي . فيشتبكون في صراع عنيف ، وتسيل دماؤهم ، وتتقوّض مساكنهم على رؤوسهم ، وتتمزّق قلوبهم . والذي يتفوّق في إزهاق الأرواح ، وتمزيق القلوب ، وإتلاف خيرات الأرض هو الذي تُغدق عليه الحرب أمجادها . فتُجلسه على منصّة الشرف ، وتُثقل صدره بالأوسمة ، وجيوبه بالمال ، وأُذنيه بالتصفيق والتهليل . في حين تمشي المروءة ، والصدق ،

والأمانة ، والمحبّة ، والسلم ، والإيمان بالحياة وعدل الحياة — تمشي في الأزقّة وليس من يسمع وطء أقدامها ، أو يعيرها التفاتة عابرة .

من سيّئات الحرب أنّها تُجلس البطولة الزائفة على عرش البطولة الحقّة . فتدعو الذي يقهر أخاه الإنسان « بطلاً » وتبالغ في تمجيده وتكريمه . والذي يقاهر نفسه ليحسن معاملة أخيه الإنسان تدعوه « جباناً » وتنبذه نبذ النواة .

أنا في عرف شين وزبانته جبان . لأنّي أتحمّل في كلّ يوم مِنْ تهكّمهم وازدرائهم ما لو كان موجّهاً إلى سواي لاستلّ خنجره وأشغل كفّه بالضرب يميناً وشمالاً دفاعاً عن « شرفه » . لكنني أرفض أن ألهو عن عدوّ مقتدر في نفسي بأعداء ضعفاء ليسوا أهلاً لأن أنفخ ضدّهم نفخة في الهواء دفاعاً عن « شرفي » . فشرفي الحقيقي أبعد من أن تصل إليه ألسنتهم وأطهر من أن تدنّسه بذاءتهم . هو بعيد عنهم بُعد أفكاري عن أفكارهم .

لذاك سكتُّ والنّاس يتكلّمون .

الثلاثاء

رأيت اليوم على شاطىء البحر فتاة جالسة على صخرة . فجلستُ على صخرة مقابلة ورحنا نتحدّث .

سألتها (ساكتاً) : ماذا تفعلين ههنا أيتها الفتاة ؟

فأجابت (ساكتة) : النّاس يستحمّون بماء البحر وأنا أستحمّ بأحزاني .

قلت (ساكتاً) : وما يحزنك أيتها الفتاة ؟

قالت (ساكتة) : فتشت طويلاً عن فتى أحبّه فلم أجد . وكان قلبي طافحاً بالحبّ . فذوى الحبّ فيه ويبس وانقلب إلى مرارة . فقلبي الآن واسع كالبحر . لكن شواطئه من ملح وأمواجه من علقم . فصمتّ متخشّعاً أمام بحر المرارة .

وسألت نفسي : ما هو الحبّ ؟ فلم أسمع جواباً .

وسألت قلبي : ما هو الحبّ ؟ فظلّ قلبي صامتاً . وقلبي ، مع ذلك ، ليس بحراً أمواجه من علقم وشواطئه من ملح .

الأربعاء

لي رفيق يشاطرني فراشي وطعامي . هو متوحّد ، ساكت مثلي ، منعزل عن أبناء جنسه انعزالي عن أبناء جنسي . ألِفته وألِفني ، وأحببته وأحبّني . لا يحفل بملاطفة الغير ، ولا يأنس إلاّ بي ، ولا يقبل طعاماً من يد غير يدي . إذا رآني أشتغل جلس بعيداً عنّي وراح يرافق بعينيه كل حركة من حركاتي . وإذا رآني جالساً أتأمّل اقترب منّي على مهل وانبرى يدور حولي دورة بعد دورة رافعاً نظره بين الفينة والفينة إليّ ،

حتّى إذا التقت عيناي عينيه وصادف في نظري ارتياحاً إليه ، قفز إلى حضني والتفّ في شكل كعكة ساتراً وجهه بيديه . ثمّ أخذ بالخرخرة . وكأنّه بذلك يشاء أن يذكّرني بوجوده ويسألني ألاّ أطرحه من فكري .

إذا تغيّبت عن المكان قليلاً عدت فوجدته دائماً بانتظاري خلف الباب . فما أكاد أفتح الباب حتّى يهبّ نحوي ، ويقف في طريقي كأنّه يطلب أن أرفعه وأضمّه إلى صدري . فأفعل ذلك . وحينئذٍ يغمض عينيه مستسلماً للغبطة الّتي نالها .

فاجأته اليوم فألفيته جامداً في وسط الغرفة وفي فيه جرذ من عمالقة الجرذان ، وقد شدّ بأنيابه على عنقه . فلم يرفع نظره إليّ . بل لزم مكانه بلا حراك كأنّه سُمّر إلى الأرض ، وعيناه جاحظتان كأنّهما من زجاج . والجرذ بين أنيابه لا يزال حيّاً وقد التوى في شبه قوس ، وتدلى ذنبه الطويل حتّى لامس الأرض ، ورجلاه ويداه تختبط في الهواء كأنّها تبحث عن شيء تقبض عليه . وإذ تكلّ تعود فتهدأ قليلاً . فيتدلى جسم الجرذ في خط مستقيم من فم رفيقي . وإذ ذاك يفتح عينيه ، وقد كحلهما الموت ، ويبحث عن مفرّ . وإذ لا يجده يطبق عينيه مستسلماً للقضاء . وتعود يداه ورجلاه تختبط في الهواء .

وقفت أرقب رفيقي وفريسته ، وكأنّني أشهد أوّل جريمة في التاريخ . وكأن شرايين قلبي اتصلت بيدَي الجرذ ورجليه :

إذا خفّ اختباطها أو زاد خفّت دقّات قلبي أو زادت .
حتّى إذا خرج آخر نحب من أحشاء الجرذ ولمعت عينا رفيقي ومشى باتجاه الصناديق ليتّم هناك جريمته ، وجدتني كأنّ الهواء قد انقطع عنّي وبطلت حركة رئتيّ .

بعد أن ملكتُ نفسي نظرت إلى حيث الصناديق فرأيت مَن كان منذ دقائق رفيقاً لي خارجاً من هناك يلحس شفتيه بلسانه ماحياً آخر أثر لجنايته وماشياً نحوي بخطوات متثاقلة كمن يتردّد في الاقتراب منّي ولا يدري أألنظر إليه بعد ما جرى نظري إلى بطل أو إلى مجرم . أخيراً دنا منّي وأخذ يدور حواليّ جرياً على عادته ، ولكن دون أن يرفع نظره إليّ . وبعد أن دار طويلاً ولم يلاقِ تلطّفاً وتودّداً منّي عاد إلى ما بين الصناديق كسير الخاطر ، حائراً في أمري . وبقي هنالك .

ليس رفيقي أوّل هرّ افترس جرذاً . ولا ذلك الجرذ أوّل من بُلي من أبناء جلدته بأنياب هرّ . فلماذا هزّني موت الجرذ وأمال قلبي عن رفيقي ؟ أوَليس ما فعله رفيقي « سنّة الله في خلقه » ؟

بلى . هي سنّة الطبيعة في ما كان دون الإنسان . هي سنّتها في الهررة والجرذان . أمّا في الإنسان فسنّتها أسمى بما لا يقاس . وإلاّ فما معنى تقزّزي من فعلة رفيقي ، وما معنى هلع الإنسان من إراقة دم الإنسان ؟ ومن أين تحريمه للقتل ؟

يخنق الغني الفقير بألف حيلة من الحيل الّتي يعرفها الغنى . فيقول النّاس : « هي سنّة الله في خلقه . أما يخنق الهرّ الفأرة ؟ » ويسلب إنسانٌ إنساناً نعمة الحياة وجمال الحياة . فيقول النّاس : « هي سنّة الله في خلقه . ألا يسلب الهرّ الفأرة نعمة الحياة ؟ » ويبطش شعب قوي بشعب ضعيف فيستعبده لمقاصده وشهواته . فيقول النّاس : « هي سنّة الله في خلقه . ألا يبطش الهرّ بالفأرة ؟ »

فيا ليت شعري ، أما من فرق بين الهرّ وبين صورة الله ومثاله ؟

عبثاً يتستّر النّاس بمثال الهرّ والفأرة . أفما بلغهم بعدُ أن الموت عقاب المتسترين ، ونتيجة المعاندة لسنّة الله في خلقه ؟

الموت لخالق الموت . وهو الإنسان الجاهل . أمّا الله الذي هو الحياة فكيف يخلق الموت ؟

الخميس

من يوم عرفت البشر حتّى اليوم لم أرَ وجهاً بشريّاً ارتسم عليه اليأس المطلق كوجه شين في هذا الصباح .

دخل وكأنّه يحمل خبر أفظع كارثة حلّت بالعالم من بعد الطوفان . كأنّ الشمس انطفأت ، والقمر والنجوم اختفت من الوجود ، والسماء هبطت على الأرض ، واللجّة ابتلعت

اليابسة ، والهواء انقطعت أنفاسه من كل أقطار المسكونة ، ومياه الأرض تحوّلت إلى دم ، والجنس البشري انقرض فلم يبقَ سواه وسواي . وكلّ ذلك لماذا ؟ — لأن المصرف الذي يحفظ فيه ماله قد أفلس فخسر ثلاثة آلاف دولار ! . .

« ثلاثة آلاف دولار يا أرقش . ثلاثة آلاف . خمس عشرة سنة صرفتها أركض اللّيل قبل النهار . وبطرفة عين راحت ، راحت . . . واخرابك يا بيتي ! يا ضياعك يا عمري ! واويلكم يا أولادي ! برقبتي عيلة . من أين أطعمهم وأسقيهم وأكسوهم ؟ خرب الله بيوت الذين خربوا بيتي . ليجعل الذهب في أيديهم تراباً ، والخبز في أفواههم حجارة ، والثياب على أبدانهم عقارب وحيّات . . . ثلاثة آلاف دولار يا أرقش . ثلاثة آلاف . راحت كأنّها ما كانت . دولار بالمائة عوض . ليكن عوضهم الموت الأحمر بجاه الله ! »

كان وهو يتفجّع ذلك التفجّع يفرك يديه، ويلطم خدّيه بكفّيه ، وينتف شعره ، ويمزّق ثيابه ، ويضرب الأرض بالكرسي ، وعيناه مغرورقتان بالدموع . حتّى ظننت أن الرجل قد خولط في عقله . بل كدت أجزم بذلك عندما انطرح عليّ وألقى يديه على كتفيّ وهزّني بعنف ارتجفت له كلّ أعصابي وراح يزمجر :

« ويحك تكلّم . ويحك ادعُ معي على الذين كانوا سبب

خراب بيتي . خرب الله بيتك . ويحك قل شيئاً . حرّك لسانك ولو بلعنة واحدة . . . راحت القهوة . راحت الفلوس . رحنا كلّنا تحت حوافر الخيل . ويحك ثلاثة آلاف . ثلاثة آلاف دولار يا أرقش . خمس عشرة سنة عرقتُ دماً من أجلها . ضاعت وضاع العمر ، وضاعت العشرة الدولارات أدفعها لك شهريّاً . أتحبّ أن تشتغل بعد اليوم بمؤونتك لا غير — أهلاً وسهلاً . وإلاّ ، فتّش لك عن عمل عند غيري . »

بعد أن فهمت سبب يأسه وتأكّدت من أن الكون ما ينفك في دورانه الأبدي ضحكت في قلبي ، لأن أوّل فكر طرأ له كان قطع جرايتي الشهريّة . بارك الله له فيها .

وقد أسفت لحياة عائلة مؤلفة من سبع أنفس قيمتها في الوجود قيمة ثلاثة آلاف دولار في مصرف — لا أكثر . فإذا أفلس المصرف أفلست تلك الحياة . سبعة آلهة بثلاثة آلاف دولار . « يا بلاش ! » وهناك صور من صور الله على الأرض لا قيمة لها البتّة . لأنّها لا تملك فلساً واحداً من الفلوس أو فتراً واحداً من التراب . والنّاس ، مع ذلك ، يعجبون لحياتهم لا يستقيم لها وزن ، ولا يثبت لها أساس . وقد وزنوها بالدرهم وأسّسوها على البيع والشراء . والحياة أخذ وعطاء ، لا بيع وشراء . أما أساسها فالله .

مثلما أشتغل أنا « بالمؤونة » هكذا يجب أن يشتغل كلّ النّاس . أمّا الأطفال والعجّز فيجب أن يعيشوا من كدّ الأقوياء والمقتدرين . وإذ ذاك فالنّاس عائلة واحدة ، والأرض حقلهم ومخزنهم العائلي . وإذ ذاك فالذي ينفقونه من العمر في سبيل الجسد لَشطر من العمر يسير . وما بقي فللدرس والتأمّل وكشف الحجب عن الإله الكامن في الإنسان .

في البيع والشراء شقاء البشر .

وفي الأخذ والعطاء مفتاح الخلاص .

الجمعة

ما عرفت بعدُ إنساناً إذا نزلت به نازلة لام نفسه لا غير . وكلّهم يلوم إمّا الله ، وإمّا الظروف ، وإمّا النّاس . وقد يلومهم جميعاً . فعلامَ لا يعجبون للكواكب تتجاذب وتتدافع فتتوافق حركاتها في أتمّ نظام ؛ ويعجبون للنّاس يتجاذبون ويتدافعون بعضهم مع بعض ، ومع سائر الأكوان ، وإذ تتوافق الحوادث التي تحدث لهم في أتمّ نظام ، ينكرون النظام ، وربّ النظام إذا كان الحادث غير ما يشتهون . ويمجّدون النظام وربّ النظام إذا كان الحادث طبق ما يشتهون أو فوق ما يشتهون . وها هو شين — والناس كلّهم شين — يلوم السماء والأرض ولا يلوم نفسه . ولو انفتحت عينا قلبه

للام نفسه دون كلّ النّاس وقبل كلّ النّاس .

هنالك بعض الذين يدّعون التقوى . والذين إذا حلّت بهم مصيبة قالوا : هي تجربة من الله . وقد فاتهم وفات جميع النّاس أنّ الله معلّم لا مجرّب . فلا يجرّب إلاّ الذي يجهل نتيجة التجربة .

والله يعلّم خائفيه وغير خائفيه بالسواء . فليس عنده محبوب وممقوت ، وجدير وغير جدير ، ونبيه وخامل . وهو يعلّم النّاس تارة باللذّة ، وطوراً بالألم . آناً بالمتعة ، وآونة بالحرمان . وما يزال ينوّع في الأمثلة وشروحها ، وزمانها ومكانها ، ويتدرّج بنا في سلّم المعرفة درجة درجة حتّى نفهم قصده منّا وقصدنا منه .

إن مثالة واحدة يتقنها الإنسان ، كأن يفهم أنّ المال لا يصلح ركناً للحياة ، أو أنّ أعماله ترتدّ إليه ، لجديرة بعمر كامل يحياه الإنسان على الأرض . مَن فهم مثالةً أصبح في غنى عنها فانصرف إلى سواها . ومن لم يفهمها كان في حاجة إلى تكرارها في شتّى القوالب والألوان . لذلك لا تنفكّ الأوجاع بأصنافها تفتك بالنّاس . لأن الناس ما تعلّموا بعد أن الهرب من الوجع إلى اللذّة هو وجه آخر من الوجع ، أو هرب من مثالة لم يفهموها إلى أخرى لا يفهمونها . وأن لا ملاذ من الوجع إلاّ بمعرفة ما يتطلّبه منّا المعلّم الأكبر ، والعمل به .

السبت

لماذا كُتب لك يا أرقش ، في هذه الفترة من حياتك ، أن تكون خادماً في مقهى؟ وأين ؟ — في نيويورك ! وأن تخالط رواد المقاهي ، فتسمع عربداتهم ، وتشهد مشاجراتهم ، وتُرضي شهواتهم ؟

إن في ذلك لدرساً ، بل دروساً لك . فكن يقظاً وأحسن الدرس .

الأربعاء

نور الثقاب . ونور الغاز . ونور الكهرباء . ونور الشمس — نور واحد ، ومصدر واحد .

تبارك النور الذي منه كلّ نور ، والذي لا تغشاه ظلمة قط . وإن في داخلي لجذوة من ينبوعك أيّها النور الذي لا يخبو . وما أشدّ شوقها إليك وإلى الفناء فيك !

الخميس

نُوح !

وهل خطر ببال قاهر الطوفان ومؤسّس السلالة البشريّة الجديدة أنّه ، بعد آلاف السنين ، سيكون يوماً ما سبباً

لشجار في مقهًى عربي في نيويورك ؟!

ذلك بالتمام ما حصل عندنا البارحة بين رجلين يتباهيان بمعرفة اللغة العربيّة . فقد قال أحدهما بصرف « نوح » وقال الآخر بمنعه من الصرف . فكان جدال ، وكان خصام وصياح . وإذا بالكراسي والصحون والفناجين تتطاير . وكان نصيب سنحاريب الذي شاء أن يلعب دور المصلح أن هبط كرسيّ على رأسه فتمايل كالسكران ثمّ هوى إلى الأرض مضرجاً بالدم المتدفّق من رأسه .

لا أذكر ماذا جرى من بعد ذلك ، لأن منظ الدم أفقدني شعوري . وقد أفقت من غيبوبتي فإذا بي في فراشي والظلمة تغمرني وتغمر المكان . حتّى اليوم لم أشعر بحاجة إلى رفيق . أمّا الآن فكأنّ السكينة تضغط عليّ من كلّ جانب . ورفيق وحدتي قد اختفى منذ قَتَلْتِه الجرذ ولم يرجع . وحبّذا لو يعود الآن . فأنا مستعدّ لأن أصفح له عن كلّ آثامه .

الجمعة

سنحاريب في المستشفى . وصارف نوح ومانعه من الصرف في السجن . ونوح ما يزال « ثلاثيّاً معتلّ العين » .

لله ما أسرع النّاس في خلق أسباب الشقاق ، وما أبطأهم في خلق أسباب الوفاق ! وهل من شيء في عالم النّاس لم يكن

يوماً من الأيّام مدعاة للخصام بين اثنين أو أكثر ؟ ولعلّ أغرب ما في شؤون النّاس ادّعاؤهم أنّهم يختصمون على « الحقّ » .

ومتى يدرك النّاس أن الحق ينفر من كلّ خصام ، وأنّهم ما اختصموا يوماً من الأيّام إلاّ على الباطل ؟

ثمّ متى يدرك النّاس أن اللغة وُجدت لخدمتهم ، ولم يوجدوا لخدمة اللغة ؛ وأن ليس على وجه الأرض لغة كاملة بتركيبها ، كافية لتأدية كلّ انفعالات النفس وتماوجات العواطف والأفكار ؛ وأن لا نفع من أيّة قاعدة لغويّة إلاّ بقدر ما ترفع من الالتباس وتساعد في دقّة التعبير ؟ أمّا القاعدة التي لا ترفع التباساً ولا تساعد في دقّة التعبير فهي قيد من حديد.

إن أوسع اللغات و أجملها أبسطُها . تلك هي لغة الأفكار والقلوب . أمّا لغة الشفاه والألسنة فسُلّم يصعد به البشر إلى لغة الأفكار والقلوب . فأبعدهم عنها أكثرهم قواعد وأدناهم من أسفل السلّم . وأقربهم منها أقلّهم قواعد وأعلاهم في السلّم .

ويل لشعب لا يتغيّر ولا تتغيّر لغته في عالم سرّه التغيّر ! إنّه كبركة ماء لا منفذ للماء منها أو إليها ؛ تملؤها الرياح والسيول أقذاراً ، فلا تلبث أن تكثر حشراتها وتنتشر منها الأوبئة وروائح الانحلال .

الأحد

أنا والزمان فارس ومطيّة . فلا هو يسبقني ولا أنا أسبقه . ومتى نبلغ الهدف فنحن لا فارس ولا مطية . وإنّي لأشفق على الذين يسابقون الزمان فإذا بهم ما يبرحون حيث هم . وأحق منهم بالشفقة أولئك الذين يمتطيهم الزمان وما يفتأون يرددون : « الوقت من ذهب . » فيا لثقل ما يحملون !

الاثنين

التردّد ضعف ينجم عن خوف التندّم في المستقبل . وقد تردّدت أمس قبل أن عزمت على عيادة سنحاريب في المستشفى.

دخلت غرفته فوجدته في سريره يطالع جريدة ، ورأسه ملفوف بشاش أبيض ، وإلى جانبه طاولة عليها عقاقير وأدوات مختلفة . فوقفت في الباب لا أدري ماذا أقول . ولساني يأبى الكلام لأطرح عليه السلام . فلبثت صامتاً واقتربت منه لعلّه يبصر ما في عينيّ من ميل إليه وشفقة عليه . وشعرت بيدي تمتد لمصافحته كأنّها مستقلّة عن سائر أعضائي . لكن سنحاريب أوقفها عندما نظر إليّ نظرة اشمئزاز وكراهية ، وأدار وجهه عنّي ثمّ ضغط زرّاً فجاءت الممرّضة في الحال . فقال لها من غير أن يلتفت إليها أو إليّ : « ليخرج هذا الرجل من هنا . »

فخرجت حائراً وما أزال في حيرة . هل خجل بلباسي أو بوجهي ؟ أم اشتدّ عليه الوجع فلم يشأ مقابلة أحد من النّاس ؟

ليفعل بي سنحاريب مهما شاء . وليفكّر بي ما شاء . أمّا أنا فقد أنزلته من فكري مكاناً ليس لسواه . فكلانا سرّ مكتوم عن النّاس .

الثلاثاء

واخجلي من نفسي ! فقد كذبت عليها في ما كتبته البارحة . لا شك في أنّني أميل إلى سنحاريب وأشفق عليه . لكنّني ما ذهبت لعيادته بدافع الميل والشفقة لا غير . بل شاقني أن أستطلع شيئاً من أمره .

احذر قلمك مثل لسانك يا أرقش . واحذر على نفسك من كليهما . ثم احذر على نفسك من نفسك .

الأربعاء

شين يبكي دراهمه وما من معزٍّ .

لقد مرّ على خسارته نحو الشهر وهو ما يزال يمشي كأنّه شبح من الأشباح . وإذا اضطرّ إلى ذكر الحادث سمّاه « المصيبة » . وقد وضع أساساً جديداً للتاريخ . فهو يقسمه اليوم إلى قسمين : ما جرى قبل « المصيبة » وما جرى بعدها .

فإذا حدّث عن أمرٍ جرى في صباه لا يقول : « حدث ذلك وأنا في التاسعة أو العاشرة من عمري » بل يقول : « حدث ذلك قبل المصيبة بكيت وكيت من السنين » أو يقول : « جرى ذاك الأمر بعد المصيبة بأسبوع » أو نحو ذلك .

ما من مصيبة إلاّ الجهل . فالمصيبة تثقل على قدر جهلنا مصدرها ومعناها . وتخفُّ على قدر فهمنا معناها ومصدرها .

الخميس

أنا في يقظة . وخفقان قلبي شاهد على ذلك . لكنّ يديّ لا ترتجفان كالسابق .

لقد أَلِفتُ زياراتها إلى حد . واللّيلة تأكّد لي أنّها تزورني زيارة صديق لا عدوّ . رأيت ذلك في عينيها . فالحزن الكثيف الصامت الكامن في أعماقها ليس حزن انتقام وغضب ، بل حزن حنوّ وشفقة . ولكنه ، لفرط عمقه ، يلوح هائلاً ورهيباً . ولهذا يرتجف قلبي . بل هو حتّى الآن يرقص بين أضلاعي ، مع أنّها ذهبت ، وأنا أعرف أنّها غير عائدة اللّيلة . أمّا عيناها فلا تزالان ترقبانني . وأنا أشعر بقربهما . وقربهما يخيفني ويؤنسني في آن معاً .

استلقيت على فراشي لأستريح قليلاً . فقد تعبت من قضاء حاجات كثيرة . ولم أطفىء مصباحي إذ أحببت أن أستسلم

إلى التأمّل ثمّ أنهض إلى قلمي ومذكراتي .

كنت أحاول أن أعود بأفكاري إلى الماضي علّني أذكر مَن كنت ، وأينَ ربيت ، وكيف وصلت إلى ما أنا فيه الآن . وقد حاولت ذلك مراراً من قبل ولم أفلح . فكنت في كل مرّة أبلغ حدّاً من ماضيّ أقف أمامه وكأنّني أمام سور منيع لا يخترقه بصري ولا تتجاوزه ذاكرتي . أمّا اللّيلة فأوشكت أن أرى بعض ما وراء السور . ولكن مصباحي انطفأ بغتة . وإذ نهضت لأشعله أبصرتها واقفة بجانب فراشي ... فجمدت...

لم أرتجف مثلما ارتجفت في المرّة السابقة . لكن قلبي انقبض حتى ذاب واضمحلّ واكتنف الضباب أفكاري فنسيت بماذا كنت أفكّر . لا ظلمة الليل ولا ظلمة أفكاري استطاعت أن تحجب جرحها الهائل عن عينيّ . شمالها لا تزال على نحرها والدم لا يزال يتسرّب من بين أصابعها . أمّا يمينها فكانت مرفوعة تدلّ على الجرح ولا تتحرّك . ورأيت كذلك شفتيها تتحرّكان كأنّهما تلفظان بعض المقاطع . إلاّ أنّني ما سمعت شيئاً . ولعلّ أذنيّ سُدّتا من شدّة اضطرابي .

أطالت مكوثها هذه المرّة فوق كلّ المرّات السابقة . فشعرت بكلّ جوارحي أنّني أعرفها . بل كدت أذكر أين رأيتها . بل كدت أناديها باسمها . إلاّ أنّها اختفت مثلما ظهرت ، وتركتني في حيرة أعمق من ذي قبل .

عبثاً أحاول الآن أن أعيد رسمها إليّ . فالضباب عاد فاكتنف أفكاري .

لا . لا شك في أنّني أعرفها . نعم أعرفها . فمن هي ؟

الجمعة

سكوت .

السبت

سكوت .

الأحد

معترك الحياة .

كلمتان ما أكثر ما تردّدهما ألسنة الناس وأقلامهم . تسمعهما الأذن ، أو تمرّ بهما العين ، فتبعثان في النفس قلقاً وذعراً وقشعريرة . ويخيّل إليك أن الكون ساحة وغى وأن كل ما في الكون ومن فيه قد اشتبكوا في صراع عنيف ، عنيد ، دامٍ ، لا رحمة فيه ولا هوادة . وما من قائد يدير المعركة . وما من مقاتل يأتمر إلاّ بشهواته ونزعاته . فالكل يحارب الكل في سبيل ما يراه حقّاً حلالاً له وحراماً على سواه . ثمّ ينتهي الكل إلى حدّ واحد — إلى الموت .

إنّه لمعترك الموت ، فما شأن الحياة منه ؟ ومتى كانت الحياة عراكاً ؟

إنّما الحياة مدرسة ومصهر ، وقطّ لم تكن معتركاً . وما يتراءى للجهّال معتركاً ليس غير الأتّون أعدّته الحياة لصهر أبنائها ، وتنقيتهم من كل ما علق بهم من رواسب الزمان والمكان لعلّهم يدركون أيّ معدن إلهي هو معدن الإنسان .

وما يحسبه الحمقى صراعاً من أجل المأكل والمشرب واللذّة البهيميّة ليس سوى الدروس تلقيها الحياة على عشّاقها لتنزع الغشاوات عن عيونهم لعلّهم يبصرون أيّ جمال هو جمال الحياة التي يتعشّقون . إنّه لجمال مقيم . وما هو من لذائذ البطن والظهر بخلّ أو بخمر .

الزائل لا يدوم . والدائم لا يزول . فما هو الدائم في كون كلّه للزوال ؟ إنّه الزوال بعينه . أنقول إن الحياة زوال ؟ بل هي ديمومة الزوال . هي القدرة التي تُزيل ولا تزول . فليعلم المعتركون .

أجل . مدرسة ومصهر هي الحياة . وهي تصهر وتعلّم كلّ ما اتّصل بها ، ومَن اتّصل بها ، مِن قريب أو بعيد . وليس في استطاعة مخلوق أن يعيش « منعزلاً » عنها . فكل ما فيها ومن فيها للمصهر وللمدرسة . فهل أحمق ممّن يقسمون النّاس إلى « انعزاليين » ، و « مقاتلين » ؟ إنّه لقول هراء .

فقد يكون أخو العزلة أقوى النّاس شعوراً بالنّار في مصهر الحياة ، وأفهمهم لأهداف النّاس ، وأكثرهم كفاية لقيادتهم .

كلّ مقاتل أعمى . وهل يصلح الأعمى لقيادة العميان ؟

الحياة مدرسة إلهيّة تعنى بتربية الآلهة . ولا ينال شهادتها النهائية إلاّ الآلهة .

الاثنين

سامحك الله يا أرقش . لقد هدمتَ حصن عزلتك بيدك . ما كان أغناك عن زيارة سنحاريب في المستشفى !

لكنّ ما كان كان . ولا يكون إلاّ ما يجب أن يكون . فلنتقبّله بالسرور ولنقل له : أهلاً وسهلاً . هكذا قلت للرسول الذي جاءني أمس من المستشفى برسالة من سنحاريب . وما أغربها رسالة : « اكتب وصيّتك ! »

وماذا يملك الأرقش يا سنحاريب ليوصي به لغيره ؟ إنّه ليملك وجهاً كخشبة نخرها السوس . وذلك الوجه قد أوصى به للدود من زمان . وإنّ على بدنه لثياباً . ولكن لا بدنه ملكه ، ولا ثيابه ملكه ، بل ملك الأرض التي أقرضته إيّاها . وإنّه ليملك أشواقاً لافحة لمعرفة نفسه . فلمن عساه يوصي بأشواقه إلاّ لنفسه ؟

إذن ماذا يملك الأرقش ؟ لا شيء ؟ — معاذ الله وكرم الله !

فالأرقش يملك ، من كرم ربّه، كلّ شيء: السماء وما فيها ، والأرض وما عليها . فهو من كلّها كُوّن ، وبها كلّها يحيا . وهذه كيف يوصي بها ولمن يوصي بها ، ولا يستطيع التمتّع بملكيتها إلاّ الذين انعتقوا من كلّ ملك ؟

ولماذا يريدني سنحاريب أن أكتب وصيّتي ؟ وما همّه أكتبت وصيتي أم لم أكتبها ؟ ألعلّه نبيّ ينذرني بدنوّ أجلي ؟ وهل لأجلي أجل ؟

الأربعاء

أمرٌ غريب . أراني من بعد أن جاءتني رسالة سنحاريب أكاد لا أفكّر في شيء إلاّ الموت . فكأنّه في كلّ خطوة أخطوها ، ولقمة أزدردها ، ونَفَس أتنفّسه ، وفي كل خيط من الخيوط التي تستر بدني . وكأنّني ألمسه في كلّ ما ألمس ، وأُبصره وأسمعه في كلّ ما أُبصر وأسمع . ولكم فكّرت فيه من قبل . ولكن تفكيري اليوم غيره في الأمس . لقد كان الموت علّة أدرسها فإذا به اليوم علّة تدرسني . كان بعيداً فاقترب . وكان اسماً فأصبح رسماً .

تعالَ أيّها الموت . تعالَ نتسامر — ونتحاسب .

الموت : لبّيك يا أرقش لبّيك !

الأرقش : ومَن أرسلك إليّ ؟

الموت : دعوتني فلبّيت .

الأرقش : أنا دعوتك ؟ ! .. بلى ، بلى ... أنا دعوتك . ولكن لماذا دعوتك ؟

الموت : أفما قلت لنتسامر — ونتحاسب ؟ وما هي بالمرّة الأولى نتسامر ونتحاسب يا أرقش .

الأرقش : ما أذكر أنّنا تسامرنا وتحاسبنا من قبل .

الموت : وكيف تذكر وأنت ما تزال فرخ إنسان ؟ وها أنت دعوتني منذ لحظة ثمّ نسيت .

الأرقش : فرخ إنسان ؟ بل أنا إنسان كامل وإن أكن ضئيل الحجم ، ويكن لي وجه كخشبة نخرها السوس .

الموت : لا شغل للموت مع الكاملين .

الأرقش : وما هو شغلك أيّها الموت ؟

الموت : أن أكمّل الناقصين .

الأرقش : وإذا اكتمل الكلّ ؟

الموت : مات الموت . ولكن الكلّ لن يكتملوا دفعة واحدة . فلا مناص من الموت ما دامت السماء والأرض في قران أبديّ .

الأرقش : ومتى يكتمل الأرقش ؟

الموت : يوم لا يستدين ولا يُدين .

الأرقش : أفصح .

الموت : يومَ لا يُميت ليحيا .

الأرقش : قلتُ أفصح .

الموت : يومَ يحيا بما لا يموت .

الأرقش : أُعيد القول : أفصح !

الموت : سكوت .

الأرقش : ليت الموت يموت ويتركنا ناقصين . أو ليتنا نكتمل بغير الموت .

الموت : كنت أظنّك غير النّاس ، فإذا أنت كسائر النّاس ، تتمنّى ما لو تمّ لك لندمت عليه .

أمّا أن يتركك الموت ناقصاً فعكس ما تشتهيه بالتمام . أما سمعتك أمس تتمنّى لو تعرف من أنت ؟

وأمّا أن تكتمل بغير الموت فأمر مستحيل . ولكي تفهم ما أقول حاول أن تصوّر لنفسك عالماً لا موت فيه . فلا شوكة تموت ولا زهرة ، ولا برغشة ولا ذبابة ، ولا بومة ولا حدأة ، ولا حيّة ولا سمكة ، ولا نمر ولا ذئب ، ولا جَمَل ولا حَمَل ، ولا ظربان ولا إنسان . وعالم لا موت فيه عالم ينمو باطّراد . لأنّ الجمود موت .

والآن صوّر لنفسك برغشة — ولا أقول إنساناً . صوّرها تنمو وتنمو وتنمو منذ بدء الخليقة . أفما كانت تملأ الأرض ؟ وإذ ذاك فأين أنت وباقي المخلوقات ؟ وإن أنت حدّدت عدد

المخلوقات ، ثمّ حدّدت نموّها كذلك ، فبماذا تقيتها ؟ ألَسْتَ تعشق الحياة لأن فيها ما يؤكل ويُشرب ويُشمّ ويُبصر؟

إذن كان لا بدّ لكلّ ما يأكل من أن يؤكل . فالأرض أمّ رؤوم ، والسماء أبٌ حنون . وهما يطعمان ما يلدان من جسديهما ، ويحييانه بروحيهما . فالأجساد للأجساد والأرواح للأرواح . أمّا الأجساد فلا بدّ من موتها لأنّها في حاجة إلى الغذاء ؛ وما كان في حاجة إلى الغذاء كان لا مندوحة له عن أن يتغذّى بغيره ويتغذّى غيره به . ولولا الموت لضاقت الأرض والسماء بما تنسلان . وأمّا الأرواح فغذاؤها الأرواح . وهي لا حجم لها ولا قياس . فلا الأرض تضيق بها ولا السماء .

ما عاش الأرقش ما عاشه من السنين من غير أن يستدين ويُدين . أفما من دَين غير دَين المال ؟ فالعواطف والأفكار ، واللذّة والألم ، والصدق والكذب ، وسواها — كل هذه كذلك تُدان وتُستدان . فعلى الأرقش أن يوفي دينه .

ثمّ ما عاش الأرقش ما عاشه من السنين من غير أن يقتات بجسد الأرض . فيُميت ليحيا . لذلك لا بدّ له من أن يموت ليُحيي .

أمّا متى أصبح في إمكان الأرقش أن يحيا بما لا يموت — بالروح وحده — فعندئذٍ يكتمل الأرقش فلا يدنو الموت منه .

الأرقش : أفما كان خيراً لي ، وقد كنت روحاً في

البداية ، لو بقيت كذلك إلى الأبد ، فلا أدين ولا أستدين ، ولا أميت لأحيا ؟

الموت : ليس الجواب على سؤالك هذا من شأني . فما أنا غير جابي الحياة ، والمعلّم الأكبر في مدرستها ، وغير رسولها . والذي أجبيه من الأحياء هو ما استدانوه من الأحياء . والذي أعلّمه النّاس هو أنّ ما يزول لايدوم ، وما لايدوم يزول . وأنا ما أزال بهم أطويهم ثمّ أنشرهم ، ثمّ أطويهم ثم أنشرهم ، إلى أن يتقنوا ذلك الدرس الأهمّ والأخير . ومتى أتقنوه وعاشوا به أصبحوا في غنًى عنّي . وإنّي لأحسبك في عداد تلامذتي النجباء .

الأرقش : وما هي رسالتك اليوم إلى الأرقش ؟

فناولني الموت ورقة مطويّة ما فتحتها حتّى ارتعدت مفاصلي ، ومشت القشعريرة في بدني ، وجمد الدم في عروقي ، وانعقد لساني . لأن الذي قرأته في الورقة ما كان غير الكلمتين اللّتين قرأتهما في رسالة سنحاريب : « اكتب وصيتك » . . . وبعد جهدٍ ملكت روعي فعدت أساجل الموت :

الأرقش : وأيّة وصيّة تعني وليس لديّ ما أُوصي به لمخلوق ؟

الموت : لديك نفسك فابذلها .

الأرقش : ولمن أبذلها ؟

الموت : لنفسك .

الأرقش : أبذل نفسي لنفسي ؟ لست أفهم .

الموت : تخلّ عن نفسك الزائلة لنفسك الدائمة .

الأرقش : إذن تريد من الأرقش أن يمحو الأرقش ؟

الموت : بل أريد من الأرقش أن يصبح القوّة التي تمحو ولا تُمحَى .

الأرقش : لقد محوت الكثير من حياتي إذ محوت اسمي من سجلات النّاس . ولقد صُمت عن الكلام ، وعن اللحم والدم ، وعن الكثير من لذاذات النفس والجسد . فماذا تريدني أن أمحو بعد ؟

الموت : امحُ الأرقش الذي ما يزال عرضة للنموّ والانحلال.

الأرقش : قل لي . ما السرّ في أن الألم رفيق ملازم للموت ؟ ويقيني أنّك لولا الألم الذي تلمس به كلّ ما تلمس لما كنتَ مكروهاً من النّاس إلى حدّ كرههم لك .

الموت : إنّما أكشف الألم المخزون في النّاس ولا أخزنه فيهم . فالنّاس يخزنون اللذّة . ومن شأن اللذة المخزونة أن تتحوّل ألماً ، لأنها مبتاعة بالألم . ولا شأن لي على الإطلاق في ما تخزنه أو يخزنه سواك من النّاس . فليعرف النّاس ماذا يخزنون .

الأرقش : ومِن ثمّ فما الحكمة — حكمتك — في تعجيلك

مع البعض وتأجيلك مع الآخر ، كأن تذهب بطفل في مهده وتتماهل مع أخيه إلى شيخوخة طويلة ؟

الموت : لست سوى المنفّذ الأمين لما يقضيه النّاس لأنفسهم أو عليها . فهم ما ينفكّون في تبادل وتفاعل دائمين مع الكون ، يشتهون أشياء ، ويُعرضون عن أشياء ، ويتلفون أشياء ؛ مثلما يبغضون بعض النّاس ، ويحبّون بعض النّاس ، ويقاتلون بعض النّاس . وهكذا يقضون لأنفسهم وعلى أنفسهم بنتائج تحتمها أعمالهم وشهواتهم وهم لا يعلمون . أمّا الحياة فتعلم ما يجهلون . وما من طفل إلاّ كان قبل أن يولد ، وكان له مع الحياة حساب .

الأرقش : لقد سامرتني أيّها الموت . وإنّي لك من الشاكرين . ولقد حاسبتني فما عرفت بعد رصيد حسابي .

الموت : اكتب وصيتك .

الأرقش : وإن لم أكتبها ؟

* * *

ما هذه الخرخرة ، ومن أين ؟ . . هذا أنت يا رفيقي الأمين ؟ لقد عاد رفيقي ، فمرحباً به . وهو يدور من حولي ويترقب سانحة ليقفز إلى حضني . تعالَ يا رفيقي ، تعالَ . مغفورة لك خطاياك . لقد أدبر الموت منذ أقبلتَ . فما أجملك سميراً ، وما أعذبك مرنّماً ! أما سمعت ما قاله الموت :

مَن استطاب لحم الجرذان استطابت لحمه الثعالب ؟

رفيقي : لقد خدعك الموت . فما همّي من الثعالب ما دام في الأرض فئران وجرذان ؟

أنا : أما تكره الموت ؟

رفيقي : وكيف أكره الموت وأنا الموت ؟ أما رأيتَ ما فعلته بالجرذ ؟ وعضّةٌ من فخذ جرذ سمين لهَديّةٌ يقدّمها إليّ الموت لو شئت أن أثمّنها لما استطعت .

أنا : لعلّك تحبّ الموت لغيرك وتكرهه لنفسك ؟

رفيقي : من غير شك . وإلاّ لكنت هرّاً أبله .

أنا : إذن أنت تكره الموت وتحبّه في آنٍ معاً .

رفيقي : وأي عجب في ذلك ؟ فالموت موتان : موت ننزله بالغير ، وموت ينزله الغير بنا . موت نحيا به ، وموت يحيا بنا . حتّى الموت في حاجة إلى الحياة . إذ لا حياة للموت إلاّ بالحياة . ولولاها لما كان .

أنا : أتكون الحياة في حاجة إلى الموت كذلك ؟

رفيقي : من غير شك . فهي تحيا به . ولولاه لما كانت . والحياة حياتان : حياة نُحييها . وحياة تُحيينا . ونظرة من عين هرّة كحلاء ، وقد التهبت أحشاؤها شوقاً إلى ما فيّ من بذور الحياة ، لهديّة تقدّمها إليّ الحياة تفوق كلّ أثمان الأرض .

أنا : لأنت أحذق لساناً من الموت . ولكنّك ما قلت لي

بعد : ماذا تفعل بالموت إذا جاءك الموت ؟

رفيقي : أموت .

أنا : وبأوجاع الموت ؟

رفيقي : أتحمّلها .

أنا : وبما ينتظرك بعد الموت : أفناء هو أم بقاء ؟

رفيقي : ذلك من شأن الموت لا من شأني . والذي أقدّره أن موتاً ربّاني لن ينساني .

أنا : أمّا أنا يا رفيقي فيؤلمني أن أحيا بآلام غيري وأن يحيا غيري بآلامي . فالألم هو عدوّي وعدوّ النّاس الأكبر ، ولعلّه المنبّه الأعظم من حياة الألم إلى حياة لا يطالها الألم . لذلك أنشد تلك الحياة . أتحسبني أنشد ماء في سراب ؟

رفيقي : قد يكون السراب أنقع للظمإ من الماء .

أنا : قد يكون . قد يكون . وهل كتبتَ وصيّتك ؟

* * *

أفقت في الصباح والقلم بين أصابعي ، ورأسي على المنضدة أمامي ، والمصباح ما يزال يشتعل ، وبين شفتيّ هاتان الكلمتان :

اكتب وصيّتك !

الأربعاء

أنا وشين في خلاف . والأصحّ أنّه في خلاف معي . وهو يهدّدني بالطرد . فقد اتّفق لي منذ ليلتين ، إذ كنت أنظف المكان بعد انصراف الزبائن ، أن عثرت في بيت الخلاء على محفظة نقود ، فوضعتها في جيبي من غير أن أفتحها . وفي الصباح الباكر جاء صاحبها وسألني بلهفة إذا كنت قد عثرت عليها . فناولته إيّاها في الحال . ومن بعد أن تفقّد ما فيها فوجده لم يُمَسّ راح يكيل لي الشكر والدعاء . وشاء أن يكافئني بشيء من المال ، فرفضت . ثمّ راح يقصّ على شين كيف أنّه كاد يفقد صوابه عندما طلب محفظته ولم يجدها . ففيها خاتم ثمين من الألماس ، ولؤلؤة نادرة ، وجواهر أخرى ، وكميّة وافرة من المال ، بحيث أن قيمتها تفوق ثلاثين ألف دولار . وكيف أنّه فتّش عنها في أماكن كثيرة ، وأبلغ أمرها للشرطة ، وأعلن عنها في أمّهات جرائد المدينة . الخ الخ .

ما كاد صاحب المحفظة ينصرف حتّى أقبل شين عليّ يرغي ويزبد ، والشرار يتطاير من عينيه ، وراح يهزّني من كتفيّ هزّاً عنيفاً :

« يا أرقش النحس . لأيّ بلى أنت ؟ بماذا حشوت رأسك ؟ ليتك بدون رأس . وأين وضعت قلبك ؟ ليتك بدون قلب .

أنسيت أنّني خسرت كلّ مالي ؟ أنسيت أنّني آويتك وأطعمتك وسقيتك ، وما أزال أطعمك وأسقيك ؟ يا لضياع تعبي عليك !

« أيرزقنا الله في بيتنا فنرفض رزق الله ؟ أيفتح الله لنا باب الفرج فنوصده بأيدينا ؟ ومن أدراك يا أرقش الشؤم أن الله ما شاء أن يعوّض عليّ خسارتي بما في تلك المحفظة ، فانتَشَلَتَها من جيب صاحبها ليضعها في جيبي ؟ ألعلّك أعدل من الله ، يا أخسّ خلق الله ؟ قبّح الله هذا الوجه الذي ما رأت عيني بعد أقبح منه .

« ثلاثة آلاف دولار يا أرقش . راحت فكأنّها لم تكن . ثمّ يُنعم عليّ ربّي بثلاثين ألفاً فتسلبني أنت نعمة الله ؟ ويحك ما كان أجهلك ! ويحك ما كان أشدّ عماك ! أأشفقت على صاحب المحفظة وهو رجل يكيل المال بالصاع ، ولم تشفق على « معلّمك » وبرقبته عيلة كالجراد ، وليس عنده غير خبزه كفاف يومه ؟ لا وربّي . سأطردك ، سأطردك ، سأطردك !

لقد ضاعت المثالة على شين . فهي ما تزال تسعى إليه ، وهو ما يزال جادّاً في الهرب منها .

السبت

أيّ قاضٍ مبصرٍ وفهيم وعادل هو القضاء ! فما من شيء في المسكونة ، مهما صغر أو كبر ، إلاّ يمثل لديه في كل لحظة من وجوده فلا ينال منه إلاّ العدل كلّ العدل . يا لذاكرة القضاء ما أوسعها وأدقّها ، ويا لعينه ما أصفاها وأنفذها ، ويا لوجدانه ما أرهفه وأصدقه !

كلّما فكّرت في القضاء باركت الحياة أُمّ القضاء ، وقلت لعقلي : اتّئد واتّعظ . فيا ليت قضاة النّاس يتّئدون ويتّعظون .

الأحد

يساورني اليوم شعور ما أذكر أن عرفته من قبل . ولعلّه الحزن . فكأنّ قلبي غير قلبي ، ودمي غير دمي ، وحركاتي وأنفاسي غير حركاتي وأنفاسي ، ففي كلّها انكماش وارتعاش وفتور . وكأنّ الأذن ملّت السماع ، والعين ملّت البصر . أو كأنّهما تخشيان أن تسمع الواحدة وتبصر الأخرى غير ما تشتهيان ، بل عكس ما تشتهيان .

ثمّ هنالك ما يشبه الأسف . ولكن على ماذا ؟ لا أدري . وما يشبه القلق أو الخوف . ولكن مماذا ؟ لا أدري . لكأنّ بعضي يزحل عن بعضي ، وكلّ ما يتّصل بي من قريب أو بعيد

قد تقنّع بقناع من شفق حارَ بين النور والظلمة . وهذا القلم يجري بين أناملي الآن هو قلم حائر لا نار فيه ولا إرادة له .

لقد نبّهني الحزن هذا إلى نقيضه الفرح . وأنا ما أذكر أنّني فرحت يوماً كما يفرح النّاس . أتراني كنت حتّى اليوم فوق الحزن والفرح ، أو دون ذاك وهذا ؟ فماذا دهاني اليوم ؟

استفق ، يا أرقش ، استفق . إنّك لفي سُبات . أفما عرفت بعد أن الحزن والفرح لِواهي القلوب لا غير ؟ وهل في الكون ما هو جدير بأن نحزن عليه أو أن نفرح له ؟ لا حزنٌ هي الحياة ولا فرح . إنّها لطمأنينة أبديّة . فاطمئن .

الجمعة

خرجت عند ظهر اليوم في قضاء حاجة من حاجات المقهَى. فوجدت الشارع الذي فيه حاجتي والشوارع المجاورة تكتظ بالبشر حتّى ليتعذر المرور . والمطلّون من نوافذ البنايات المصعّدة في الجو أكثر من الواقفين على الأرصفة . فكأنّهم رِجل من الجراد . والذين على الأرض يتدافعون بالمناكب ، ويشرئبّون بالأعناق ، وكلّهم يحاول الوصول إلى طرف الرصيف الأمامي . والشرطة تدفع من فاض منهم عن الأرصفة إلى الوراء . ولا يندر أن تلجأ إلى العصيّ . وما الخبر ؟

إنّ ملِكاً من ملوك الأرض العظام جاء البلاد زائراً ،

وعمّا قليل يمرّ موكبه من هناك . ذلك كلّ الخبر ! وذلك ما قذف بتلك الجماهير من أوجارها ، وأوقف دواليب أعمالها ، لتحظى ولو بلمحة من ملك ! أمّا أن كلّ واحد منهم ملك ؛ وأمّا أنّهم يحملون تاج الألوهة على رؤوسهم ، وبصمات الألوهة على أبدانهم ، وسحر الألوهة في قلوبهم وأحشائهم ؛ وأمّا أن الأجدر بهم أن « يتفرّجوا » على أنفسهم ليل نهار قبل أن « يتفرّجوا » على ملك أو بطل أو بهلوان — فذلك لا يخطر لهم ببال .

ألا أغمضي عينيك أيّتها الحريّة ، وأشيحي بوجهك عن النّاس . ثمّ لا تعجبي لهم ، ولا تعتبي عليهم ، ولا تدينيهم بجهلهم ، ولا تحرقي شفاههم كلّما تلفّظوا باطلاً باسمك القُدُّوس . فشفاههم لا تنطق بما في قلوبهم ، بل بما يتمنون لو كان في قلوبهم . والذي في قلوبهم هو الرقّ في أخسّ مظاهره ومعانيه — رق الإنسان للإنسان . والذي يتمنون لو كان في قلوبهم هو روحك الطاهرة أيتها الحرية الطاهرة ، السافرة ، المقدِّسة والمقدَّسة .

لذلك يمجدون اسمك بشفاههم ويدوسون جسدك بنعالهم . ولقد رأيتهم اليوم بعينيّ يسحقونك بأقدامهم سحقاً ، وسمعتهم بأذنيّ يهتفون : ليحيَ الملك ! ومعنى ذلك ليحيَ الرقّ ! والموت للحريّة ! فهم إذ يهتفون بحياة الرقّ لا يدركون أنهم

بموتك يهتفون . وهم إذ يسيرون في موكب الرقّ لا يعرفون أنّهم في جنازتك سائرون .

ليس العبد مَن يباع ويُشرى في سوق النخاسة . وإنّما العبد مَن قلبه سوق للنخاسة .

لذاك سكتّ والناس يهتفون .

الخميس

لا أدري ماذا طرأ عليّ حتى أكاد لا أعرف نفسي . فما أنفكّ أسأل نفسي في الزمان الأخير : « من أنا ؟ » كيفما انقلبت رأيت هذا السؤال نصب عينيّ . أطرده من جانب فيعود إليّ من جانب آخر . تضعضعت أفكاري وأصبح التأمّل ضرباً من العذاب . هوذا اليوم الرابع وأنا كلّما حاولت جمع أفكاري سمعت صوتاً يرنّ في داخلي : « من أنا ؟ »

فمن أنا ؟

أنا — أنا . ما أعرفه في هذه اللحظة عن نفسي هو كل ما أحتاج إلى معرفته . فالأرقش الذي كان من عشرين عاماً ، والأرقش الذي كان من عشرين جيلاً ، والأرقش الذي كان من ألف جيل قد اجتمعوا في أرقش هذه اللحظة . وأرقش هذه اللحظة ليس بغريب عنّي . فصوت من يسألني : مَن أنا ؟

ما ذاك صوت الأرقش الذي يخدم في مقهًى عربي في نيويورك ، ويعيش ساكتاً متأمّلاً . ولكنّ « أرقش » آخر يسأل نفسه : من أنا ؟

إذنْ أنا أرقشان : واحد انسحب من حلقة البشر والتحف بالسكوت ليتّصل بالعالم الأعلى ويسير معه . وآخر انحجب عن البشر بستار من الأسرار البشريّة. وهو يحاول تمزيق الستار ليعود إلى حظيرة البشر . فهو من العالم الأدنَى ويتوق إلى العالم الأدنى . كأنّ بينه وبين هذا العالم حسابات قديمة لا بدّ من تصفيتها .

لذاك نشبت في داخلي حرب لم أشعر بمثلها من قبل . فعوامل تكاد تطلق لساني من عقاله وتردّ أفكاري إلى الأرض وأوصاب الأرض . وعوامل ترفعني إلى حياة الفكر المطلق .

وأنا بين تلك وهذه أرقش يعرف نفسه وأرقش يجهلها فيسأل : « من أنا ؟ » وكأنّ الأرقش الثاني قد أفاق ، أو يوشك أن يفيق ، من سُبات عميق . فهو يودّ أن يعرف من أين جاء ليعود من حيث جاء .

الحرب سجال . فأيّ الأرقشين يغلب ؟

الأحد

تحدّث اليوم بعضي المجهول وبعضي المعلوم . فسأل بعضي المجهول بعضي المعلوم :

« مَن أنت ؟ »
فأجابه بعضي المعلوم :
« أنا لا شيء وكلّ شيء . »
فقال بعضي المجهول :
« ومِن أين وإلى أين ؟ »
فأجاب بعضي المعلوم :
« من الأزل وإلى الأبد . »
فصمت بعضي المجهول حائراً . ثمّ عاد فسأل :
« ومن أنا ؟ »
فلم يحرز جواباً سوى الصمت العميق . لذلك امتعض غيظاً وكرّر سؤاله بحدّة :
« قل لي من أنا . فأنت تعرف أسراري وأنا أجهلها . »
فبقي بعضي المعلوم معتصماً بالصمت .
عندئذ أعاد بعضي المجهول الكرّة بحدّة أشدّ من ذي قبل وقال مهدّداً :
« قل لي مَن أنا . أو فأطلق سراحي ، وحُلّ لساني من عقاله . فقد مللت السكوت . »
فتألم بعضي المعلوم ، وانقبض ، ثمّ تمتم بحزن لا قرار له :
« أمهلني . ثمّ يكون لك ما تشاء . »
وبكى .

الثلاثاء

مضى النهار وفكري يحوم حولها . أثنيه فلا ينثني . فكأنّه النار تنشرها الريح في الهشيم .

أخذت القلم ، وقد انتصف الليل ، فما انقاد لي القلم . أطفأت مصباحي وحاولت أن أستسلم للنوم فما تسلّمني النوم . وإذا بالظلمة من حولي ترتعش كأنّها ملاءة سوداء هزّتها يد خفيّة . وإذا بالّتي كنت أفكّر فيها تنسلخ عن الظلمة شبحاً أبيض نيّراً وتدنو من فراشي برفق عجيب وخفّة متناهية ، وقد تستّرت بغلالة من الحرير الأبيض الشفّاف ، وبسطت نحوي ذراعيها البضّتين . والجرح في نحرها ما يزال فاغراً فاه ، والحزن في عينيها ما يزال عميقاً ، هادئاً ، رهيباً ، وقد خالطه ما يشبه اللّوعة ، بل القلق ، بل اللهفة .

اضطربت ولكن من غير أن أقشعرّ . وخفق قلبي ولكنه ما نزل إلى أخمصيّ . وجحظت عيناي ولكنّ ستاراً لم يُسدل عليهما . بل وجدتني ، على العكس ، قادراً أن أحملق في ذلك الوجه من غير أن ينحدر بصري عنه إلى الأرض . لله ما أجمله وما أغربه وجهاً ! كأنّه صيغ من أصفى معادن الحبّ والألم لا غير . بل كأنّه الحبّ والألم في تزاوج سماوي .

سألتها : مَن أنت ؟ وماذا تبتغين من رجل وجهه خشبة

نخرها السوس ؟ وما كان أشدّ دهشتي ، بل فرحي ، عندما أبصرت شفتيها تتحرّكان . فأصغيت بكلّ جوارحي . ولكنني لم أسمع صوتاً . وقد خُيّل إليّ في لحظة كانت أقصر من ومضة البرق أنّني سمعت ما يشبه الصوت ، وما يشبه المقاطع أوّلها نون وآخرها ميم – نعيم – نديم – نسيم ، أو نحو ذلك . لقد كانت لحظة لا غير .

ثمّ دنت منّي على مهل ، ومن غير أن أعرف ماذا جرى ، وكيف جرى ما جرى ، أحسست قبلة على جبيني كانت أحرّ من جمرة . فانتفضت . وإذ حاولت أن أمسك بها وجدتني قابضاً على الظلمة لا غير . وها أنا أكتب ما أكتب ، والعرق يتصبّب من جبيني فلا يطفىء الجمرة المتوقدة عليه .

فكّرت بعد ذهابها في الحبّ – حبّ الرجل للمرأة . ثمّ تخيّلتني أُحبّ امرأة كهذه وتخيّلتها تحبّني . ثمّ فكّرت في النّاس كيف ينتهي بهم الحبّ إلى الزواج . فيموت حبّهم ويموتون . إن الزواج لمقبرة الحب . الحبّ يسمو بالمحبّ إلى أعلى ؛ والزواج يشدّ به إلى أسفل . الحبّ يلتهم المحبّ فينشره شعاعاً في الفضاء ؛ والزواج يسحن المحبّ فينثره هباءً في الهواء . الحبّ ذوبان ، فتبخّر ، فانعتاق ؛ والزواج تجمّد ، فتصدّع ، فانشقاق .

كيف يرضى الحبّ ، وهو شعلة من نار ، أن يصبح

بالزواج كومة من رماد ؟ ولكن ، ما لي ولمثل هذه التأمّلات ، وهي أبعد ما تكون عن حياتي — اليوم وبعد اليوم حتّى آخر الدهر ؟

الخميس

البحر .

يجذبني البحر في هذه الأيّام ولا جذب الثدي للرضيع . وقد ذهبت إليه الليلة وطفقت أناجيه وبي نشوة من عبيره وهديره :

يا بحر، يا مَهدي ومَهد الحياة !
يا بحر ، يا صوتي وصوت الدهور !
يا بحر ، يا فوّارة لا تغور !
يا بحر ، يا قلبي وقلب الإله !
يا جامع ما انتثر ، وناثر ما اجتمع .
يا معلّم السموّ والوداعة ، والطموح والقناعة .
يا حامل أوزارنا ، وغاسل أقذارنا .
يا نقطة في ألف ربوة نقطة ، وألف ربوة نقطة في نقطة .
يا نائماً لا يستيقظ ، ومستيقظاً لا ينام .
يا حالماً ما نحلم وما لا نحلم .
يا مالك الأرض ومملوكها .

أبديّتك لمحة ، ولمحتك أبديّة .

والزمان على صدرك في غفوة الأبرار .

يا ليت للنّاس عيوناً تُبصر ما لا يُبصَر ، وآذاناً تسمع ما لا يُسمَع . إذن لأبصروك ، يا بحر ، وسمعوك فعرفوك وفهموك . وإذنْ لألقوا إليك بأوقار قلوبهم قبل أوقار جيوبهم . ولَسَبَقَت أرواحُهم أجسادَهم إلى الاستحمام في طهارتك . فلا الحزن لديك حزن ولا الفرح فرح . فالحزن إذا ما مشى إليك وأوغل فيك عاد ولا أنياب له ولا براثن . والفرح إذا ما تَناوَلَتْه أمواجك النقيّة ردّته إلى الشاطىء بليلاً وطاهراً من الزهو والغرور .

أُحبّك أيّها البحر . أُحبّ سكونك الثائر ، وثورتك الساكنة . فثورتك ثورتي ، وسكونك سكوني .

أُحبّ زبدك وأمواجك . فبي زبدٌ كزبدك وأمواجٌ كأمواجك .

أُحبّ انكماشك وانبساطك ، فبي مثل انبساطك وانكماشك .

وأُحبّ حنينك الأبدي ، فما أشبهه بحنيني !

نحن بحران أيّها البحر . ولكن الأرقش هو البحر الأوسع والأعمق والأبقى . فأنت يأتيك يومٌ تتقلّص فيه وتنضب . أمّا الأرقش فلا يتقلّص إلاّ لينتشر ، ولا ينضب إلاّ ليمتلىء

بما لا ينضب .

أجل . نحن بحران أيّها البحر ، والأرقش هو الأبقى .

الأحد

عاد سنحاريب من المستشفى وآثار الجراح ما تزال بادية في وجهه ، وعينه ما تزال تتهرّب من عيني . لكنني لحظت غير مرّة أنّه كان يحدجني من طرف خفيّ . أمّا أنا فقد فرحت لسلامته وعودته ، وما حاولت أن أبيّن له فرحي بحركة أو بكلمة . وليتني أعرف سبب كرهه لي .

أليس غريباً أن تحبّ إنساناً ويبغضك ؟ وكنت أعتقد أن المحبّة أقوى من البغض ، وأن البغض يولّد بغضاً ، والمحبّة محبّة . فما بال محبّتي لسنحاريب لا توقظ فيه محبّة لي ، وبغضه لي لا يثير فيّ بغضاً له ؟

الجمعة

عجبت لنفسي لا يُسعدها ما يُسعد النّاس ، ولا يشقيها ما يشقيهم . ألعلّني من غير طينة النّاس ؟

ها هو هذا المقهى ، على صغره وحقارته ، يكاد يكون معرضاً شاملاً لكلّ هموم الأرض وآلامها ومسرّاتها تحملها إليه في كلّ يوم شرذمة لا شأن لها في النّاس ، ولكنّها تمثّل

خير تمثيل جميع مشاكل النّاس .

هنا تعرض المشاكل الجنسيّة بأنواعها : من الغرام المتأجّج إلى رماد الغرام . ومن سكرة الزواج إلى صُداع الزواج . ومن شهوة البنين إلى التبرّم بالبنين .

عناق ففراق . أمل فندم . أمانة فخيانة . شهد فعلقم . امتداد فارتداد . انتصار فانكسار . تضحيات ونكايات . بركات ولعنات . صلوات وعربدات . وكلّها يهرب من النور ولا يأنس إلاّ بالظلمات حيث يتراءى له بريق الشهوات كأنّه بريق الحياة ، ورمادها كأنّه التبر لا تشوب نقاوته ولا ذرّة من التراب . قلوب تتفتّح للملذات فلا تلبث أن تحتلّها الآلام . ولحوم تلتصق بلحوم فلا تعتّم أن تتهرّأ كلّها . ودماء تُضرم النيران في دماء . ثمّ تخمد النيران فإذا الدماء صديد وصلصال .

وهنا تعرض المشاكل التجاريّة والسياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة بأصنافها — وما أكثر أصنافها : منتج ومستهلك ، صاحب عمل وعامل ، مؤجّر ومستأجر ، أسعار وأجور ، ربح وخسارة ، استقامة وغدر ، صدق ونفاق ، نجاح وإفلاس ، رخاء وأزمة ، حاكم ومحكوم ، مشترع ومنفّذ ، قاضٍ ومتقاضٍ ، عدل وظلم ، رؤوس وأذناب ، كُتل وأحزاب ، ثورة وجمود ، قلق واستكانة ، شِيَع ومذاهب ، معابد ومصلّون ، آلهة تَرجُم وآلهة تُرجَم ، أنبياء يجمعون وأنبياء

يفرّقون ، دنيا وآخرة ، جحيم ونعيم ، حياة للفناء ، وفناء للحياة .

ومن خلال هذه كلّها حراب مسنّنة من البغضاء والشحناء، وحروب لا يُكبَح لها جماح ، ولا يخمد لها أوار . فقلوب تُمزّق ، وأرواح تزهق ، وحيوات تشرق وتغرب وكأنّها لا شرقت ولا غربت . وما من سائل يسأل : أمِن أجل هذا كنّا وكانت الأرض والسماء ؟

ولو أنّني ما كان لي من هادٍ غير ما أُبصر من حولي وما أسمع لجزمت بأن حياة النّاس سلسلة من المشاكل لا غير . وبأنّهم قاصرون عن حلّ واحد منها . فمشاكلهم اليوم ما تزال عين مشاكلهم منذ آلاف السنين . وكلّما تمادى بها الزمان زادت عدداً ثمّ زادت تعقّداً . وأيّ خير في حياة كلّها مشاكل في مشاكل ولا أمل بحلّ واحد منها ؟ لأفضل لمن كانت حياته كذلك لو أنّه لم يكن .

إلا أنّني ، وأنا واحد من النّاس ، لا أرى أثراً لأيٍّ من تلك المشاكل في حياتي . وإن يكن من مشكل في حياتي فهو شوقي إلى معرفة نفسي لا غير . وأنا واثق من أن الذي أضرم هذا الشوق فيّ سيقودني إلى الجواب الذي يبرّد شوقي . إن ذلك الشوق هو المخلّص الذي أنقذني من مشاكل العالم ، وهو الهادي الذي يمشي بي إلى هدفي . ومثلما خلّصني سيخلّص

النّاس . وحيث يمشي بي سيمشي بهم . فالإنسان للحياة لا للموت . وللمعرفة لا للجهل . وللحريّة لا للعبوديّة .

لكنّ لكلّ إنسان أوانه . والزمان طويل ، طويل ، طويل .

الخميس

يا طالب الكمال ، نِعِمّا ما تطلب . فهل أجمل من أن تعرف كلّ ما تجهل ، فتسود كلّ ما كان يسودك ، وتقود كل ما كان يقودك ، وتخلق ما تشاء ساعة تشاء ؟

تمتطي الزمان ولا يمتطيك الزمان ، وتحتضن المكان ولا يحتضنك المكان . إن أردت فلا مردّ لما تريد ، أو نطقت فنطقك القسطاس والمحجّة .

المجد ثمّ المجد لك . والويل ثمّ الويل للساخرين بك !

ولكن — لهف قلبي عليك . أجل . لهف قلبي عليك . فطريق الكمال كثير المزالق .

رُبّ عين دعجاء أعمت عينك ، ورضاب معسول جفّف رضابك ، ودم ملتهب بالشهوات ألهب دمك . فحدتَ عن طريقك وأنت تحسبك ماضياً فيه . وترمّدتَ بنار شهواتك وأنت تحسبك مستعراً بشوقك إلى الكمال .

والنّاس من حولك جيوش جائشة . يرقبون كل خطوة من خطواتك ، وحركة من حركاتك ، ويحصون عليك

أنفاسك . حتى إذا ما عثرت عثرة واحدة ــ وإن لم تكن بذات بال ــ رفعوا عقائرهم شامتين وهاتفين :

« انظروا ! انظروا ! هوذا طالب الكمال يعثر ويعضّ التراب . لقد ظنّ أنّ في إمكانه الارتفاع عنّا فإذا به يهوي إلينا . لقد دعانا عبيد الشهوات ، وها هو يستسلم لشهوة من شهواتنا . ولكم نصحناه فلم ينتصح . وردعناه فلم يرتدع . أما قلنا له إنّ للّحم والدم سلطاناً لا يقاوَم ؟ لكنّه لم يصدّق قولنا . وظنّ أنّ في مستطاعه التغلّب على اللحم والدم . فليدفع ثمن غروره . »

ليس أبغض على النّاس من أن يروا إنساناً يُفلت من أقفاصهم ويحلّق بعيداً عنهم . ولا أحبّ إليهم من أن يُصعَق ذلك الإنسان فيخرّ صريعاً ، أو أن يُكرَه على العودة إلى قفص من أقفاصهم . لذلك يشمتون بطالب الكمال لدى أوّل عثرة يعثرها في طريقه الكثير المعاثر .

أمّا أنا ــ الرجل الصغير المجهول الذي له وجه كخشبة نخرها السوس ــ فما سمعت بطالب كمال إلاّ تمنّيت أن أجعل من قلبي بساطاً لرجليه ، ومن روحي سياجاً لقلبه . فاكتمال إنسان واحد هو الكفيل باكتمالي واكتمال كل النّاس .

أربعة هم الناس :

إنسان جُلّه بهيمة وبعضه إنسان . وإنسان نصفه بهيمة

ونصفه إنسان . وإنسان جلّه إنسان وبعضه بهيمة . وإنسان كلّه إنسان .

أمّا الأوّل فما لفكرة الكمال أقلّ سلطان عليه . وأمّا الثاني فيحلم بالكمال ولكنه لا يسعى إليه . وأمّا الثالث فيحلم ويفكّر ويؤمن ويشتاق ويسعى بكلّ واسطة لديه . وأمّا الرابع فقد وصل إلى ما وراء الحلم والفكر والإيمان والشوق والسعي فلا يغريه تصفيق ولا يؤذيه تصفير . والثالث من هؤلاء الأربعة أحقّهم بالتقدير وبالمحبّة والغفران . لأنّه لا يصارع البهيمة في نفسه لا غير ، بل يصارع كذلك النّاس الذين ما برحوا جلّهم بهيمة ، والذين نصفهم بهيمة . فهؤلاء لا ينفكّون يزرعون في طريقه الفخاخ لينصروا البهيمة فيه على الإنسان ، كيما يبقى واحداً منهم وضمن حظيرتهم .

أيّها الكمال ما أدناك وأقصاك ، وما أمرّك وأحلاك !

أيّها الكمال لا تحصِ عليّ عثراتي .

أيّها الكمال ليكن شوقي إليك شفيعاً بي لديك .

الثلاثاء

الإنسان سيّد الطبيعة ؟!

إنّه لهرف وهذيان .

فالمفروض في السيّد أن يسود لا أن يُساد ، وأن يُطاع

لا أن يُطيع ، وأن يُملي لا أن يُملَى عليه . فأين الإنسان — كما نعرفه اليوم — من كلّ ذلك ؟

لو كان الإنسان سيّد الطبيعة لما ناله منها أذى على الإطلاق. وها هو لو شاء أن يحصي يوماً آلامه التي تأتيه من الطبيعة لما أحصاها . ناهيك بالموت وأصنافه وأسبابه . فمن ذرّة الرمل إلى أقصى الشموس في الفلك ، ومن قطرة الماء إلى الأوقيانوس ، ومن أصغر ميكروب إلى الفيل ، ومن ألطف نسمة إلى أشد إعصار ، ومن أحقر نبتة إلى أعتى سنديانة — من كلّ ما يتصل به من الطبيعة تنهال على الإنسان المحن والمصائب والأوجاع بغير انقطاع . فبأيّ لسان يدّعي السيادة وهو المسود ؟

ثمّ لو كان الإنسان سيّد الطبيعة — وهو منها — لكان من الواجب أن يبدأ بنفسه ، فيسيّر أحلامه في اللّيل ، وأفكاره في النهار حسب هواه . ثمّ يتحكّم في جسده بطوله ووزنه وشكله ولونه وحركاته وغرائزه . وكذلك في قواه العقليّة والروحيّة والماديّة . فلا يشتهي ولا يفكّر ولا يعمل إلاّ ما يريد ساعة يريد . ما للنّعاس ولا للجوع والعطش ، ولا للميول الجنسيّة ، ولا للحقد والغضب ، ولا لليأس والأمل عليه أقلّ سلطان .

لا . ليس الإنسان ، كما هو اليوم ، سلطان الطبيعة . ولكنّه مُعَدّ لأن يصبح يوماً ما سيّد الطبيعة . وما الطبيعة

في الواقع سوى مرآة الإنسان . فألغازها وأسرارها ، وخيرها وشرّها ، وجمالها وقباحتها ليست سوى انعكاسات ألغازه وأسراره ، وخيره وشرّه ، وجماله وقباحته .

كما يكون الإنسان تكون الطبيعة من حوله . فمن جملتْ حياته وصفَت أفكاره رأى الطبيعة جميلة وصافية . ومن قبحت حياته وتشوّشت أفكاره رأى الطبيعة قبيحة ومشوشة . لذاك فمفتاح الطبيعة ليس في الطبيعة عينها بل في الإنسان نفسه . وذلك المفتاح هو المعرفة .

من شاء أن يعرف الطبيعة فليعرف نفسه أوّلاً . ومن شاء أن يكون سيّد الطبيعة فليكن سيّد نفسه .

الاثنين

والوصيّة — وصيّتُك — يا أرقش . أما آن أن تكتبها ؟

بلى . بلى . فلنكتب :

يا قلماً يجري على القرطاس . مَنْذا الذي يُجريك ؟

أهي أناملي ، وأناملي تسوقها أفكاري ؟ أهي أفكاري ، وأفكاري ترشح من معين الفكر السرمدي ؟ سبحان من أجراك .

قد كنتَ لي شَفَةً وكنتَ لساناً . ثمّ كنتَ خير السمير . لكَم عاندتني فصبرت على عنادك . ولـكَم كبحتُ جماحك

فما شكوتَ كبحي . لقد كنتَ آناً مبضعاً ، وآناً مروداً ، وآونة قارورة بلسم . وقطّ ما كنتَ ناب أفعى . بك سبرتُ أعماقي . وبك تسلّقت أعاليّ .

لَكنّم أحسستك عضلاً في قلبي ، ووريداً في دماغي ، ووتراً في قيثارة روحي . أثور فتثور ، وأعصف فتعصف ، وأسكن فتسكن . لكنّك من قصب وأنا من لحم ودم . فما كان لنا أن نبوح بأكثر ممّا يستطيع أن يبوح به اللّحم والدم إلى القصب ، والقصب إلى القرطاس . لذلك أوصي بك للنّار . فما يبوح بالنّار إلاّ النّار .

فاغفِرْ ولا تستغفر .

ويا محبرة ملأتها من دمي ، فكانت أرفق بدمي منّي . إذ موّهَتْه بسواد اللّيل لتحجبه عن الأبصار فيبدو للمتطفّلين كما لو كان حبراً أسود لا غير . لله كم سقيتكِ واستقيتُ منكِ . فلا أنتِ ارتويتِ ولا أنا ارتويت . وكيف أرويك وأنا عطشان ، وكيف ترويني وأنتِ عطشى ؟ لذلك أوصي بك للبحر . فالبحر لا يرويه غير البحر .

فاغفري ولا تستغفري .

ويا ثياباً كانت لجلدي جُلوداً ، شتّان ما بينك وبين

جلد لفّني به الله من أمّ رأسي حتّى أخمصيّ فكان آية الآيات في دقّة الصنع والإحكام والمرونة . يتسع عند الحاجة ويضيق عند الحاجة . فلا يزيد قمحة ، ولا ينقص شعرة . وهو يجدّد ذاته بذاته . فيرفأ ما انفتق منه ، ويصل ما انقطع ، ويتنفّس بآلاف المناخير ، وينضح من آلاف الميازيب . فيه الصحارى ، وفيه الواحات ، وفيه المروج والغابات .

كان صغيراً يوم كنتُ صغيراً . وصار كبيراً يوم صرتُ كبيراً . ما فارقني لحظة ، ولا فارقته لمحة . فيه خرجت من أحشاء أُمّي الصغرى ، وفيه أعود إلى أحشاء أُمّي الكبرى . والعهد بيني وبينه عهد لا نُكول عنه . هو عهد الحياة والموت . فسبحان مَن غزل وحاك ، وسبحان من فصّل وخاط .

وأمّا أنتِ يا ثيابي فلا أنا أدري ولا المنجّم يدري من نبات أيّ بقاع الأرض أنت ، ومن صوف أيّ شاء وحملان ، ومن غزل أيّ مغزل ، وحياكة أيّ منوال ، وخياطة أيّ خيّاط . كم لمستَتْكِ يدٌ من قبل أن تلمسي بدني . فأنا إذ ألبسك جلوداً فوق جلدي لا أعرف ماذا أنا لابس من أوصاب النّاس وأتعابهم ، وبركاتهم ولعناتهم ، ومحبتهم وبغضهم ، وملذاتهم وأوجاعهم . مثلما لا أعرف ماذا أودَعَتك الشمس والقمر والنجوم ، والبحر والريح ، والضباب والتراب .

ومن ثمّ فأنت يا ثيابي نُتَف لا تربطها أُلفة أو محبّة ،

بل تشدّها رغم أنفها خيوط واهية لا تلبث حتى يدبّ فيها الوهن . فإذا أنت كذلك رهن البلى لا تنجع في خلاصك إبرة ولا يجدي في شفائك خيط . ولا انسجام بينك وبين بدني ولا هيام . فأنت فضفاضة هنا ، ومنكمشة هناك . آناً طويلة ، وآناً قصيرة . حيناً ثقيلة ، وحيناً خفيفة . ألبسك في النهار وأنضوك في اللّيل . ثمّ يأتي زمان أنزعكِ فيه لغير ما لقاء .

ولكنّك يا ثيابي شربتِ الكثير من عَرَقي ، وسمعتِ الكثير من نبضات قلبي ، وأصغيت إلى دبيب الدم في عروقي ، وحملت قسطك من أوزاري . فأصبحتِ بعضاً منّي . لذلك أوصي بك للعث ، فليس كالعث ساتراً للعيوب .

فاغفري ولا تستغفري .

ويا عيناً لمحتُ بها الإله . يا آية الآيات ومعجزة المعجزات . يا شاهداً للنور وما هو من نور ، ويا كوّةً يُطلّ منها الروح على الروح وما هي بالروح . تبارك مَن صاغك فأبدع .

تبارك إنسانك لا يتّسع لحبة الخردل ويسع كلّ منظور في الكون ! فالسماء بسُدُمها ومجرّاتها ، وشموسها وأقمارها ، وشُهبها ودراريها تجثو عند محرابكِ وتغفو تحت أهدابك . والأرض بجبالها وسهولها ، وغاباتها وصحاريها ، وأنهارها وبحارها ، وكلّ ما دبّ على أديمها وامتطى هواءها تدور على

قطبيّك . وألوان قوس السحاب وجميع ما يتفرّع عنها من ألوان تتعانق وتتراقص وتستحمّ بماء جفنيك .

طوباك فقد كُحّلتِ منذ ولادتك بمرودَين : مِرْوَد الجمال ومرود الشناعة . فلا الجمال بهرك عن الشناعة . ولا الشناعة أعمتكِ عن الجمال . بل غمرتِ بنورك الاثنين . فعاشا فيك توأمين غير منفصلين . في حين أنّي ما برحت أناصر الجمال على الشناعة . فلا الجمال ينتصر ولا الشناعة تنكسر . ولكنّ علّمتْنِي بالمثل والمثال أن حرباً أثيرها بين الاثنين هي حرب أثيرها بين نفسي ونفسي . أمّا الجمال والشناعة فكانا منذ الأزل في سلام ، وسيبقيان إلى الأبد في سلام . ولكنّني ما تعلّمت ولا أدركت . وأكاد اليوم أتعلّم وأُدرك .

ظَلَمْتكِ يا عين ظلماً لا يطاق . وحمّلتك فوق ما تحملين . فما شكوتِ ولا كنتِ من الظالمين . وهل للجهل أن يعدل أو للفهم أن يظلم ؟

كم منظرٍ وقعتِ عليه فتمنّيتُ لو كنتُ بغير عين . وآخر فقلتُ يا ليتَ لي ألف عين ! ولا ذنب عليك في الحالين . بل الذنب ذنبي . ما عرفت أنّ كلّ ما يغمره النور درجاتٌ في السلّم المؤدّي إلى النور . وكل ما تتجلّى فيه الحياة طريق إلى قلب الحياة ، سواء أدعوناه جمالاً أم دعوناه شناعة . وسواء أدَمَغناه بدمغة الخير أم دمغناه بدمغة الشرّ . ويا ليت

القائلين بأن طريق الحقّ واحد لا غير ، وبابه واحد لا غير ، يتخذون منك عبرة ودليلاً . فأنت ما سلكتِ سبيلك إلى عالم المرئيّات بشيء منها دون شيء ، بل بسائر الأشياء التي ارتسمَتْ فيك . وأنتِ ما ولجتِ عالم النبات من باب الأرزة دون العوسجة ؛ أو عالم الحيوان من باب الغزال دون القرد . بل كان كلّ ما تقعين عليه في الكون باباً لك إلى الكون الذي تبصرين .

لله كم طريقٍ سلكتِ بي يا عين . فكان كأنّه الدهر يقطعنا ولا نقطعه . وها أنا ما أزال سائراً في طُرُقي التي لا تُعَدّ وما أعلم أين تنتهي وأنتهي . ولله كم بابٍ وقفتِ بي أمامه فما تخطّيتِ بي العتبة . من ذرّة الرمل وقطرة الندى إلى الشمس في أبراجها والبحر في شطآنه . ومن البعوضة والجُعَل إلى الحوت والإنسان . إنّها لأبواب مسحورة مرصودة . وها أنا ما أنفكّ أقرعها بقلبي لا بيدي . وما أدري أيُذيبها القلب قبل أن يذوب ، أم تصرعه قبل أن يسمع صرير مصاريعها .

سواك يغرق بالدمع حيناً وحيناً يُشرق بالبسمات . وأمّا أنتِ فما أذكر أن غسلتك يوماً بملح دمعة أو دغدغتك ببريق بسمة . فما أغرب حظّك بين حظوظ العيون !

ولكنّني ما أضرمت فيك نار شهوة : لا شهوة آدم لحواء ، ولا شهوة الفقير للثروة ، ولا شهوة الوضيع للمجد ،

ولا شهوة الموتور لأخذ الثأر . وقد عشنا ما قُسم لنا من العمر حتّى الآن في سكون وسلام . وقريباً نفترق . فلا بدّ للعمر من نهاية . وأنا أكتب وصيتي . فلمن أُوصي بك يا عين ؟

إنّـني أُوصي بك، بما فيك من عوالم لا تحصى ولا تُـحَدّ ، وأطياف أحلام لا تُعرف ولا تُوصف — أُوصي بك للدود .

أجل . للدود — للدود — للدود !

فاغفري ولا تستغفري .

ويا أُذناً سمعت بها ضميري فكانت مَنْفذي إلى ضمير الكائنات . بوركتِ من آلة عجيبة تنقل إليّ كلّ ما يجول في ضمير الإنسان منذ يُولَد حتى يُلحَد . وكل ما يقوله صغير الطير وكبيرها ، وما يقوله الوحش في براريه ، والسائمة في مرابطها ومراعيها ، والحشرات والهوامُّ في مسارحها ، وأوراق الأشجار على أغصانها ، والأعشاب في منابتها ، والرياح والنسائم في أجوائها ، والأمواه في مجاريها ، والرعد في مطاوي غيومه ، والأرض في براكينها وزلازلها . أمّا أنّـني أفهم أو لا أفهم ما تنقلين فما ذاك من شأنك في شيء . إذ « ما على الرسول إلاّ البلاغ » . وأنتِ رسول ونعم الرسول .

لهفي عليكِ فما عرفتِ الراحة لحظة واحدة منذ كنتِ وكنتُ . فأنتِ رسول لا يهدأ النهار ولا الليل . وقد تحملين

إليّ ألف رسالة في دقيقة . لكنّني بطيء وكسول . وقلّما أقرأ من ألف رسالة تأتيني بها أكثر من رسالة واحدة . وحتّى هذه الواحدة لا يندر أن أقرأها على عكس معناها الحقيقي . وأنتِ ، مع ذلك ، لا تيأسين ولا تتقاعسين ولا تلومين . بل تمضين في عملك دونما كلل أو ملل . وتتزاحم فيك الأصوات ناعمها وخشنها ، وخافتها وصاخبها ، فلا تضيقين بواحد منها ولا تتأفّفين .

لو كان لي يا أُذن أن أجمع كلّ ما ولجك من الأصوات في خلال ثلاثة عقود من السنين ، ثمّ أن أصنع منها شبه قنبلة صوتيّة ، ثمّ أن أُطلق تلك القنبلة في الفضاء ، أما كان يجفل لدويّها البحر ، وتصطكّ الجبال اصطكاك أسنان المقرور ، وترتجف أمعاء الهواء ارتجاف أمعاء المحموم ، ويرتجّ كلّ دماغ في كلّ جمجمة ، وتنفخت كل طبلة في كل أذن ؟

ثمّ لو كان لي أن أقتنص كلّ كلمة سمعتِها منذ بدأتِ تسمعين حتّى اليوم ، وأن أسطرها بالمداد على القرطاس ، وأن أبسط القرطاس على الأرض أفما كان يغطي الأرض ؟

ولكن واخجلي منك ، ثمّ واخجلي من النّاس ، بل واخجل النّاس من النّاس لو أنّهم راحوا يقرأون ما على القرطاس ! فالكلام أكثره كلامهم لا كلامي . وهو كلامٌ فيه للبذاءة والسفاهة والتفاهة والنميمة والشتيمة والفحشاء والمَيْن

والمكر والزُّلفى قصور وحصون . مثلما فيه للهمّ والخوف والقلق عروش وصوالجة وتيجان . وللبغض والحقد والحسد وزراء وجيوش وقوّاد . ومن العدل أن نقول إنّه لا يخلو من بعض أعشاش للعفّة والطهارة والنُّبل والسموّ والشوق إلى الجمال والحقّ والمحبّة .

إنّه لكلام يتيه فيه العقل ويختبل الخيال . إذ يختلط صالحه بطالحه ، وصادقه بكاذبه . فتنام فيه اللعنة مع البركة ، ويتزاوج اليأس والأمل ، ويتعانق الموت مع الحياة . وأنت ما أنت من ضآلة الحجم ، حتى إنّ طبلتك لا تتسع لكتابة بسملة أو حمدلة .

حقّاً . إنّك لآلة عجيبة يا أذني ، وإنّك لمستودع غريب . والأعجب منك والأغرب هو الأرقش الذي يسمع ما تسمعين وما لا تسمعين . والأرقش يكتب الآن وصيّته . ولمن عساه يوصي بك ؟

للدود — للدود — للدود !

فاغفري ولا تستغفري .

وأنتِ يا أمعاء الأرقش وأحشاءه وأعضاءه ، ويا مفاصله وعظامه ، ويا جلده وشعره ، ويا رقعة من خشب نخرها السوس هي وجهه . أنتِ يا رجليه ويا يديه ، ويا لسانه وشفتيه ،

ويا أظافره وأسنانه ، ودماغه ودمه . لست أدري أيّك الأهمّ والأعظم والأعجب في بناء حياةٍ هي حياة الأرقش . وكيف أدري وأنا البناء وساكن البناء ؟

يا له من بناء كل ما فيه حركة لا تهدأ وحياة لا تنام . ثمّ يا له من ساكن يشغل كل ما في البناء ويظنّه شاغلاً حيّزاً ضيّقاً منه لا غير . فهو إذ يشتغل بيديه أو رجليه أو فكره ينسى ما تبقّى من جسمه . في حين أن ما تبقّى من جسمه لا ينساه ، بل يثابر على القيام بوظيفته دون انقطاع . فما من شعرة أو ظفر أو خليّة أو قطرة دم إلاّ تعمل عملها في اللّيل والنهار . وأعمال الكل تنسجم انسجاماً يفوق حدّ التصوّر في عمل واحد هو عمل الجسم الحيّ .

لله كم مشيتَ بي ومشيتُ بك يا جسدي . ومن يستطيع أن يحصي المسافات التي قطعناها ؟ وكم هضمتَ من خيرات الأرض والسماء ، وهضمَتِ السماء والأرض من خيراتك . وكم تنفّستَ من الهواء ونفثتَ في الهواء من أنفاسك . ولو كان لي أن أجمع أنفاسك لا غير لخلقتُ منها الأعاصير والزعازع . ولكنّنا ما خُلقنا يا جسدي لنخلق الأعاصير والزعازع بل لنجعل منها نسمات بليلات منعشات .

وها أنا أكتب الآن وصيّتي . فلِمن عسَاني أُوصي بك ؟

للدود — للدود — للدود !

فاغفر ولا تستغفر .

وأنتَ يا قلب —

. . . . .

يا قلب يا قلب — —

. . . . .

يا قلب يا قلب يا قلب — — — —

. . . . .

يا نبضة الخالق في المخلوق ،
يا مجمع الآزال والآباد ،
يا مَرْكب الأحزان والأفراح ،
يا فوّارة الأنوار والظلمات ،
يا مِرْخَمَ الهمّ والألم ،
يا سرير الـ «آه» والـ «أوّاه» ،
يا مهد الحياة ولحد الموت ،
يا مذبح الشوق ومحراب الأمل ،
يا حظيرة الأوهام ومسرح الأحلام ،
يا جعبة الشكّ ودرع اليقين ،
يا صنّاجة الساعات والأعوام والقرون ،
يا دليل العميان والمبصرين ،

يا أُذُنَ الأمس ، وعينَ اليوم ، وبصيرة الغد ،
يا عُشّاً يبيض فيه السّلم فتحضن الحرب ما يبيض ،
يا إناء الرحمة ومنجنيق النقمة ،
يا فضاء لا يُحَدّ عند الفرج ، ويا سمّ الخياط عند الضيق ،
يا مصحفاً قرطاسه الدم ، ومداده الدم ، وحروفه الدم ،
يا قارورة الإله وقاذورة إبليس ،
يا قيثارة غصّت بألحانها ،
يا جائعاً لا يشبع ، وظامئاً لا يرتوي ،
يا قزماً يصرع العمالقة ، وعملاقاً تمزّقه الأقزام ،
يا عابداً إلحاده صلاة وصلاته إلحاد ،
يا ناسكاً في صدر ناسك ،
يا قلب يا قلب يا قلب — — —

. . . . .

يا قلب يا قلب — —

. . . . .

يا قلب —

. . . . .

للدود ! — للدود ! — للدود ! —

. . . . .

. . . . .

. . . . .

لقد اشتريتَ آثامك بآلامك .

مغفورة آثامك . ومباركة آلامك .

الثلاثاء

لقد كان من الخير لك يا أرقش الخير أن كتبت وصيّتك . فلولاها لما عرفت أيّ الغنى هو غناك . وكنت تحسبك لا تملك شيئاً . فإذا الأكوان بأسرها تسعى إليك وتحيا بين جنبيك .

ولو أنّك كنت تعرف الحسد لكان جديراً بك أن تحسد نفسك لا غير . ولكنّك لا تعرف الحسد . وثروتك فوق ما تستطيع حصره الأرقام . وعمرك ، مهما طال ، لن يستهلك منها مقدار ذرّة من جبل . أنقول إن الذي أعطاك ما أعطاك كان مسرفاً في إعطائه ، أو كان جاهلاً فما وازن بين قدرتك على التمتّع وبين قدرته على العطاء ؟ إذن هو أحمق من غير شكّ . وذاك قول أُعيذك منه يا أرقش .

وإنّما أنت الأحمق يا أرقش تظنّ أنّ مَن وهبك الأكوان لم يهبك سوى ثلاثة عقود من الأعوام لفهمها والاستمتاع بأجسادها وأرواحها . وما أدراك أنّه لم يهبك الأبديّة إذ وهبك الكون والحياة ؟ ثمّ من أدراك أن غفوةً تغفوها وتدعوها الموت ليست محطة من محطات عمر يمتد من الأزل وإلى الأبد ؟ وكيف للأزلي والأبديّ أن يفهمه ما كان غير أزليّ وأبديّ ؟

قرّ عيناً يا أرقش . فوصيّة تكتبها اليوم في هذا الجانب من قبرك ستبدو لك مهزلة في الجانب الآخر منه . وستشحذ غفوةُ الموت قابليتك على الاستمتاع بالوجود فتستفيق منها وبك نهم جديد إلى حياة جديدة ، مثلما تستفيق من غفوة ليلتك وبك اشتياق إلى النهار الآتي .

الجمعة

لو انكشفت لك كلّ أسرار الكون يا أرقش ما خلا سرّ الإرادة الخلاّقة لبقيتَ ريشة في شدق عاصفة هوجاء وأعشى في جوف ليلة ليلاء .

السبت

خذها يا أرقش الذقن والأنف والوجنتين . خذها رسالة كريمة من رسول كريم ومثالة بليغة من أستاذ بليغ .

لقد تماديتَ في الغرور حتى ظننتك طاهراً من كلّ عيب ونقيّاً من كلّ جرثومة تحمل في قلبها الفساد . وحسبتَ أنّك خادنتَ القضاء فأنتَ في مأمن من الوجع . وها هو ضرس من أضراسك يسلبك لذة النوم والطعام والتأمّل من غروب الشمس حتى شروقها ثمّ من شروقها حتى غروبها . وما يكتفي بذلك ، بل يشوّه وجهك المشوّه ، فينفخ خدّاً دون خدّ ، ويمتدّ

الورم إلى عينك فيكاد يطفئها .

ثار عليك ضرس من أضراسك فبعثر أفكارك ، وهدّ أعصابك ، وعاث بأحلامك ، واستنفد صبرك ، وشلّ إرادتك ، وأذلّ كبرياءك ، وصرفك عن كلّ همّ غير همّه . فكأنه من جسمك الياء والألف ، ومن فكرك المحور والقطر والدائرة . بل كأنّه — وما هو غير عظمة زهيدة في فكّك — ثعبان بألف فكّ وفك يمتص دماغك ، وينخر أعصابك ، وينفث سمّه في مجاري دمك ، ويلتف حول قلبك فيعصره عصراً . فتستغيث ولا مغيث — غير كلاّبة الأسنان !

أليس من المضحك المبكي أن يستغيث من ضرسه مَن فكره لا يني يستنطق الأرض والسماء عن أسرارهما ، وخياله لا ينفكّ يرود الآزال والآباد ، ومَن جسده مركّبٌ عجيب من أمور عجيبة أقل ما فيها حفنة من فتيت العظام منضّدة في شكل أسنان وأضراس ؟

أليس من العجب أنّ من يروّض السباع ، ويفتّت الجبال ، ويمتطي العاصفة ، ويقهر اللجّة ، ويسخّر البرق ، يعجز عن أن يروّض ضرساً من أضراسه فلا يثور عليه وينتقم منه ويتركه فريسة للوجع الذي لا يُطاق ؟

أليس جديراً بالتفكير يا أرقش أن ضرساً ساهم في بنيان جسمك وأحسن إليك خير الإحسان كلّ هذه السنين يُضرب

اليوم عن المساهمة في البنيان وينضمّ إلى معسكر الهدم ثمّ ينقلب من خير محسن إلى شرّ مسيء ؟ أعندك أقلّ الشك في أنّك قد أسأت إليه ؟ ولكنّك تجهل كيف أسأت إليه ومتى وأين . لذلك جاءك الوجع يعلّمك ما تجهل . فأنت الذي قضيت على نفسك بالوجع . وكان قضاؤك في يدك ، وأنت تلوم القضاء .

أين إرادتك الخلاّقة يا أرقش تنتهر السوس في ضرسك فيكفّ عن النخر ، وتزجر أفكارك فتنصرف عن الوجع إلى الراحة ، وتأمر ضرسك فيعود ضرساً سليماً سويّاً ؟

ما دامت إرادتك قاصرة يا أرقش عن أن تسيّر جسدك حسب هواك فاعلم أنّ بينك وبين المعرفة التي تنشدها نجاداً ووهاداً كلّ فتر منها مفروش بالحيرة والوجع . وأنت لو كانت لك المعرفة التي تنشد لما أكلت أو شربت ، ولا نويت أو فعلت ، ولا تخيّلت أو اشتهيت ما من شأنه أن يجلب السوس إلى ضرسك ، والوجع إلى رأسك ، وأن يُحدث أقلّ خلل في التوازن العجيب ما بين جوارحك ، وخلايا لحمك وعظمك ، وقطرات دمك .

ولكنّك ما تزال جاهلاً وأيّ جاهل يا أرقش . وشوقك اللافح إلى المعرفة لا يكفيك وحده حصناً ضدّ الألم . لا ولا يكفيك التأمّل . وصيانة اللّسان ، وكبح جماح اللحم والدم ،

وترويض القلب على العفّة والقناعة والتسامح . كل هذه من مخفّفات الألم . ولكنّها ليست بالسور المنيع الذي لا يقتحمه الألم . أمّا ذلك السور فالمعرفة .

حيثما الجهل ، يا أرقش ، هنالك الألم . فالألم هو النذير والبشير ، وهو المعلّم والمقوّم لقوم يعقلون .

وأيّ نفع لك ، يا أرقش ، من الألم يلقي عليك دروساً ولكن من بعد فوات الوقت — من بعد أن يودي السوس بضرسك ؟

وقت الدرس كلّ وقت . ودرس لا تنتفع به الآن ستنتفع به فيما بعد .

إن يكن الألم معلّماً للمتألّم ، يا أرقش ، فما نفع المحتضر من آلامه ، وحياته توشك أن تنتهي ، والفسحة التي بينه وبين اللّحد أقصر من أن تتّسع للانتفاع بعثالة الألم ؟

إنّ في ذلك وحده لعبرة بالغة للذين يعتبرون . فالألم شجرة ثمارها المعرفة . والمعرفة زاد يتزوّده المتألّم من يومه لغده ، مثلما يتزوّد المسافر من نهاية مرحلة لبداية مرحلة أخرى .

معلّم بليغ هو الألم في كلّ ما يلقيه على النّاس من دروس ما بين المهد واللّحد . أتظنّه يفقد رشده وبلاغته ويُبتلى بالخرف حالما يبلغ بالنّاس حافّة القبر ، فيروح يلقي عليهم دروساً لا نفع منها البتّة ؟

وزادٌ طيّبٌ هي المعرفة المعصورة من الألم . أتظنّ أنّ الحياة التي كانت حكيمة إلى أقصى درجات الحكمة في كلّ ما زوّدت به المحتضر في سفراته ما بين الولادة والاحتضار تفقد حكمتها عند احتضاره ، فتزوّده لغير ما حاجة ولغير ما سَفَر ؟

وما أدراك أن المحتضر ليس على سَفَر وأنّ آلامه في هذه الناحية من القبر ليست زاداً له في الناحية الأخرى من القبر ؟ بل لو لم يكن الأمر كذلك لما كان لوجودك يا أرقش أو لوجود أيّ إنسان وأيّ شيء أقلّ معنى . وأيّ معنى لحياة يمحوها موت لا معنى له ؟

أنقول ، إذن ، يا أرقش : « أهلاً وسهلاً بالألم » ؟

لا . لا . بل نقول : « بُعداً للألم ! » فما وجهه بالوجه المستحَبّ ، ولا مذاقه بالمذاق المستساغ .

أيكون الألم صديقك وعدوّك في آن معاً يا أرقش ؟

أجل . أجل . ولكنّني ما صادقته إلاّ لأعاديه ، ولا قرّبته إلاّ لأقصيه ، ولا أطعمته إلاّ لأفنيه . ويا ليت الناس ينسون كلّ عداواتهم إلاّ عداوتهم للألم . ويا ليتهم يُقلعون عن كلّ حرب غير حربهم مع الألم . ومعنى ذلك : يا ليتهم يطلبون المعرفة من الألم ليعودوا فيقهروا الألم بالمعرفة .

ولكن النّاس عميان . فهم يحاربون القدَر . وأقدارهم

منهم وفي أيديهم . إلاّ أنّهم لا يعلمون .

الأربعاء

صلِّ ، يا أرقش ، صلّ . فهذه البلبلة في رأسك وقلبك لا يزيلها إلاّ الصلاة .

ومن أين تلك البلبلة في رأسك وقلبك ، يا أرقش ، حتّى كأنّ رأسك غير رأسك ، وقلبك غير قلبك؟ أيسطو عليك طيف عابر فيسلبك اتزانك ، ويحتلّ وجدانك ، وينزل في حبّة قلبك فأنت لا تملك من أمرك معه غير الخضوع والخشوع والاستسلام؟

ولكنّه طيفٌ ولا كالأطياف . طيف فتاة في غلالة أرجوانيّة تسيل من كلّ خيط من خيوطها فتنة الأنوثة البكر ، وبمثل السحر تتغلغل في بدني ، فأُحسّ حرارتها تدبّ في كلّ قطرة من دمي ، وفي عظمي وجلدي ، وفي أجفاني وأهدابي ، وفي كلّ جارحة من جوارحي . ثمّ أحسّها موجات تلطمني من كلّ جانب ، وما تزال بي حتّى تغمرني من أمّ رأسي حتّى أخمصيّ . وإذا بي لهيب ووجيب — وشهوة جامحة بأنْ أحرق الفتاة ثمّ أحترق وإيّاها بنار واحدة وفي أتّون واحد ، وأن نحيا الأزليّة والأبديّة في لمحة واحدة .

القامة قامتها ، والوجه وجهها ، والشعر شعرها ، والنهدان نهداها ، والكفّان كفّاها . وكذلك النحر نحرها . إلاّ أنّه

لا أثر فيه لجرح أو لدم . بل هو العاج المصقول . وأمّا عيناها فهما هما . ولكن الحزن فيهما قد تقنّع بأنوثة تفوح منها شهوة التفتّح والاكتمال .

ما أدري كيف برزت لي من غضون الظلمة وكيف لمستني فأوقدت النار في أحشائي . ولا أدري بماذا خاطبتها وخاطبتني . ولا أذكر بأيّة قدرة وجدتُني جاثياً عند قدميها . والذي أذكره هو أنّها مسحت عينيّ بكفّيها ثمّ نشرت أمامي وريقة مطويّة قرأت فيها العبارة التالية :

« ذبحتُ حبي بيدي لأنّه فوق ما يتحمّله جسدي ودون ما تشتاقه روحي . » ثمّ ابتلعتها الظلمة .

ويا ليت الظلمة ابتلعتني معها . إذ قد سلختني عن نفسي . فأنا اليوم غير أنا .

صلّ ، يا أرقش ، صلّ .

الخميس

شين اليوم في همّ جديد . وهمّه الجديد هو زواج بنت من بناته . وهي الثالثة بين أربع أخوات — اثنتان منهن عانسان وقد فات وقت زواجهما . أمّا هي فما شاءت أن يكون حظّها حظّ أختيها الكبيرتين . لذلك لم تتردّد قطّ في قبول أوّل « نصيب » جاءها . وأوّل نصيب جاءها رجلٌ ترمّل عن

صبي وابنتين . وقد سبقها إلى هذا العالم بعشرين سنة . ويكاد يكون مُقعَداً عن العمل لضعف في أعصابه وكبده وكليتيه . أمّا ثروته فتنحصر في أنّه ذَكَرٌ يليق في نظر التقاليد الاجتماعيّة أن يكون بعلاً لأنثى .

ذلك ما عرفته في هذا الصباح من شين إذ كنت وإيّاه وحدنا . فابتدرني بقوله :

« خزاك الله يا أرقش ، وخزى زماناً ضاع فيه قدر الوالدين وراح الأولاد يتصرّفون بحياتهم على هواهم فلا يطيقون أدنَى تدخّل من قبل الأمّ والأب . فها هي بنت من بناتي تهمّ بالزواج من رجل غريب لا نعرف أصله من فصله . فلا تستشيرنا في الأمر . بل تفصّل وتخيط كما تريد كأنّنا لسنا بموجودين . وإذ نستقصي الخبر ونعرف أن الرجل أرمل وشبه مُقعَد فنزجرها ونردعها عن الزواج به تشتمنا وتنعتنا بالجهل والبربريّة . ثمّ تقلب شفتها استخفافاً بنا وتمضي في استعدادها للزواج كأنّ الأمر لا يعنينا بكثير أو قليل . والأنكَى من كلّ ذلك أنّها لا تأنف من أن تطلب المال مني ومن والدتها . فما قولك دام فضلك ؟ »

وإذ لم يسمع مني جواباً عاد فقال ثانية :

« خزاك الله . فأنت لا للحرب ولا للسلم . ولا للمشورة ولا للتنفيذ . لا للفرح ولا للضيق . ولولا أنّك أخرس لرضيت

بك زوجاً لابنتي ، ونسيت أنّك أرقش . ولكنّك أخرس . »
وبعد فترة من السكوت والتأمّل : « وقد يكون الأخرس العازب خيراً من المقعد الأرمل . أترضى بابنتي زوجاً لك إن أنا رضيت بك بعلاً لها ؟ »

* * *

صلّ ، يا أرقش ، صلّ . صلّ من أجل شين . وأيّ النّاس ليس شيناً فيما يتعلّق بالزواج ، وتقاليد الزواج ، ومراسم الزواج ؟ بل فيما يتعلّق بسائر التقاليد والمراسم الّتي تواضع عليها النّاس ؟

رُبّ كتاب قتل كاتبه . ورُبّ خالق صرعه مخلوقه .

والنّاس تقتلهم تقاليدهم وتصرعهم مراسمهم من حيث يدرون ولا يدرون .

الأحد

مضى أسبوع كامل وسنحاريب لم أرَ له وجهاً . فقلقت عليه أشدّ القلق من غير أن أعرف سبباً معقولاً لذلك القلق . فلا الرجل صديقي أو نسيبي . ولا هو يبدي نحوي درهماً من العطف الذي أكنّه له في قلبي . بل أراه على العكس ينفر مني وينظر إليّ نظرة اشمئزاز وضغينة .

وممّا زاد في قلقي على سنحاريب حديثٌ سمعته عنه

منذ يومين بين اثنين من زبائن المقهَى . قال أحدهما :

« ما لسنحاريب انقطع عن زيارة المقهَى ، وقد كان لا تفوته ليلة واحدة من ليالي البوكر فيه ؟ أتظنّ أنّه أفلس من المال لكثرة خسارته ؟ فأنا ما رأيته يربح إلاّ نادراً جدّاً » .

فقال الآخر :

« أفلس ؟ ! لعلّ الثعالب تفلس من البراغيث والمروج من الجنادب قبل أن يفلس سنحاريب من المال . لا تخدعنّك ظواهره . فالرجل من كبار الأثرياء . ولأمرٍ لا أفهمه ولا يفهمه أحد يتظاهر بالفقر . إنّه لسرّ عميق . بل هو مجموعة أسرار . »

الأوّل : لو كان الأمر كما تقول لما سكن غرفة زريّة في أحقر حيّ من أحياء المدينة .

الثاني : بل الأمر كما أقول . أما عرفت أنّه ابتاع سيارة من أفخم السيارات ؟

الأوّل : وما حاجته إلى سيارة وهو لا متاجر عنده ولا عيال ، ولا يهمّه الزهو واللّهو ، والثياب الّتي على بدنه تكاد لا تصلح لسائق سيارة ، فكيف بربّ سيارة ثريّ ؟

الثاني : قلت لك إن الرجل لغز . أتدري لماذا اختار هذا المقهَى من بين كلّ المقاهي في حين أنّه من أصغرها وأحقرها ؟

الأوّل : ولماذا ؟

الثاني : لأن الأرقش يخدم هنا .

الأوّل : وما علاقته بالأرقش ؟

الثاني : وهذا لغز كذلك . لقد قال لي مرّة إن له ولعاً عظيماً بدرس أطوار النّاس ، وبالأخص من كان بهم شذوذ كالأرقش .

الأوّل : ولكنّه ، على ما يبدو لي ، يكره الأرقش .

الثاني : بل هو معجب به ، عطوف عليه . ولكنّه يتظاهر بالكره له كيلا يحسّ الأرقش أنّه يدرسه .

الأوّل : أمر غريب .

الثاني : أجل ، غريب . والدنيا مليئة بغرائب الأمور .

الأوّل : وما سبب انقطاعه عن زيارة المقهى ؟ هل تعرف ؟

الثاني : لا أعرف . لعلّه لاهٍ بتمرين سيارته الجديدة . أو لعلّه نزل به حادث من حوادث السيارات الكثيرة . أو لعلّه سافر إلى مكان مجهول ولن يعود . أمّا إذا كان باقياً في المدينة ، وكان سليماً ومعافى ، فسنراه قريباً من غير شكّ .

* * *

وهكذا كان . فقد أقبل علينا سنحاريب بعد ظهر اليوم ومكث حتى منتصف الليل .

كنت واقفاً بالباب عندما درجت سيارة فخمة إلى الرصيف وكان يقودها بيده . وعندما ترجّل ودخل ذهلت لمنظره مثلما ذهل شين وزبائنه . فقد كان مرتدياً بذلة رماديّة غاية في دقّة الصنع والأناقة . وكانت يده اليسرى في قفاز من الجلد الأبيض الناعم وفي قبضتها قفاز اليد اليمنى . وكان شعره مصقولاً لامعاً، ووجهه مشرقاً ومدلوكاً بأثمن ما تعرفه حوانيت المزينين من المساحيق . وكان يتضوّع منه عطر لطيف منعش ، ما إن تنشقته حتى شعرت كأنّ برأسي دواراً ، وكأنّ المقهى تحوّل قصراً منيفاً ، وكأنّني أعرف ذلك القصر وكلّ باب من أبوابه ، ونافذة من نوافذه ، وكلّ قطعة من رياشه وزخارفه .

والأغرب من ذلك أنّني ما إن وقعت عيني على سنحاريب في زيّه الجديد ، وفي سيارته الجديدة ، حتى شعرت كأنّني عرفته من زمان ، وكأنّه كان ألصق بي من قميصي ببدني . أمّا أين كان ذلك ، وكيف ، ومتى — فلا أذكر .

أقول « لا أذكر » وقد كادت رائحة العطر المنتشرة من سنحاريب تذكّرني . وها هي تلك الرائحة — وقد أقفر المقهى من سنحاريب ورفاقه منذ ساعتين — ها هي تدغدغ أنفي وتعبث بأفكاري . فآناً تدنيني ، وآونة تقصيني . وما تنفكّ تغريني وتعذبني كأنّها الكلمة الضائعة في تلافيف الدماغ . نحسها على الشفاه وعلى اللسان ؛ نحسّ أحرفها ونكاد نسمع

وقعها ، ولكنها تعصي علينا فنعجز عن سكب أحرفها في كلمة وعن استعادة وقعها في مقاطع . ومن بعد أن نملّ ونكلّ ونقلع عن التفتيش تأتينا عفواً وبدون أقلّ عناء .

ولعلّ الرائحة التي فاحت عليّ اليوم من سنحاريب فكادت تذهلني عن كلّ أمر عداها — لعلّها تفتح الباب المغلق عليها في دماغي من غير أقلّ عناء مني . ولعلّ ذلك الباب إذا انفتح انفتحت من بعده أبواب وأبواب . فما أدري لماذا رحت أشعر في هذه الأيّام كما لو كانت في رأسي أبواب كثيرة موصدة ولكنّها توشك أن تنفتح .

وأمر آخر من الغرابة بمكان . ولا شكّ أن له مغزاه . إلاّ أنّني أجهل مغزاه . ذاك أن سنحاريب قبيل انصرافه وانصراف باقي الزبائن عند منتصف اللّيل دخل حجرتي خلف الحاجز الخشبي دونما سابق إنذار أو استئذان . وكنت جالساً إلى منضدتي ، ورأسي بين كفّيّ ، وفكري يحاول خرق الحجب التي أمام عينيّ . فما سلّم عليّ ، ولا التفت إليّ . بل راح يتفحّص الحجرة كمن يفتّش فيها عن ضائع ، أو كمن يدرس أشياء في متحف . وبعد دقائق خرج مثلما دخل .

ما كنتَ بلجوجاً فيما مضى يا أرقش . فلا تكن بلجوجاً الآن .

الاثنين

اليوم فهمت قصد سنحاريب من دخوله حجرتي اللّيلة البارحة . ففي هذا الصباح أبصرت خلف الباب وريقة بيضاء مطويّة . فرفعتها وفتحتها . وماذا قرأت فيها ؟ قرأت :

« ذبحت حبّي بيدي لأنّه فوق ما يتحمّله جسدي ودون ما تشتاقه روحي . »

يا إلهي ! يا إله الصُّمّ والبُكم والمتوحّدين ! يا إله الألغاز والأحاجي ! أيّ لغز هذا اللغز ؟ أيّة أُحجية هذه الأحجية ؟

ما لي ولهذه العبارة تأتيني بها « هي » منذ أيّام ، ثمّ يأتيني بها سنحاريب أمس ؟

ثمّ ما أغرب أن تكون الورقة التي جاءني بها سنحاريب عين الورقة التي جاءتني بها هي — بلونها ، وحجمها ، وطيّاتها . والأغرب من ذلك أن الخط هو هو ، وأنّه يشبه خطّي شبه التوأم للتوأم .

يكاد رأسي ينفلق كلّما فتّشت عن حلّ لهذا اللغز . ألعلّني كنت حالماً في الحالتين ؟

ثب إلى رشدك يا أرقش . ما كنت حالماً آنئذٍ ولا أنت حالم الآن . ولكنّها ظلال أحداث تزحف عليك من غياهب ماضيك . وما من حدث يزحف عليك إلاّ بدعوة منك وإلاّ

لحاجة ملحّة في حياتك إليه . فبينك وبينه صلة الجاذب بالمجذوب والواصل بالموصول . ولولا ذلك لما جاءك البتة .

أما خطر لك أن تسأل نفسك لماذا جاءتك هذه الورقة ولم تجيء أحداً سواك ؟ أما ترى أنّها جاءتك لأنّك جذبتها إليك ؟ فاقبلها شاكراً ، وتفحّصها مليّاً . لئن غاب عنك معناها اليوم فلا بدّ من أن ينجلي لك في الغد .

ثب إلى رشدك يا أرقش . واثبت . ثمّ لا تكن بلجوجاً . ودع الأيّام تتمخّض في أوانها عن كلّ كبيرة وصغيرة في أرحامها . فأنت لن تستقدمها لحظة ولن تستأخرها لمحة . ولك من يومك شاغل عن غدك .

الثلاثاء

اليوم عيد — عيد العمل . والأرقش عامل . ولكنّ العيد ليس عيده .

وأيّ يوم هو عيدك يا أرقش ؟ أنت وجدك بين كلّ ما في الأرض من آدميّين لا عيد لك . بل أنت وحدك كلّ يوم من أيّامك عيد . أليس أن كلّ يوم ينفحك بخيالات جديدة ، وأحاسيس جديدة ، ونِعَم لا نفاد لها ؟ وهل العيد إلاّ أن تستمتع ولو بنعمة واحدة من نعم الوجود التي تفوق العدّ والإحصاء ؟ أمّا نِعَم الوجود جميعها فمَنذا يستطيع أن

يستوعبها في يوم واحد ، أو عام واحد ، أو عمر واحد ، بل في ألف عمر وعمر ؟ إنّها لأكثر من أن تسعها عين أو أُذن أو أنف ، أو جيب أو بطن .

وأعياد النّاس ، مع ذلك ، هي أعياد عيون وآذان وأنوف وجيوب وبطون . هي كلّ ما من شأنه أن يصرفهم بقلوبهم وأفكارهم وأجسادهم عن النعمة التي لها يعيّدون ، سواء أكانت تلك النعمة مولد رسول أم موت نبيّ أم استشهاد وليّ ، أم نعمة كالتي يعيّدون لها اليوم — وهي نعمة العمل وما يخلقه العمل .

لقد كان الإقبال على المقهَى منقطع النظير . فمنذ الصباح حتّى نصف اللّيل ونحن نودّع زوّاراً ونستقبل زوّاراً . وجيَب شين تنتفخ أكثر فأكثر ، وعيناه تضحكان أعلى فأعلى ، ولسانه يقرع أسنانه وسقف حلقه أسرع فأسرع وأشدّ فأشدّ . فالعيد عيده . أو هو بالأحرى عيد جيبه وعينه ولسانه . أمّا نعمة العمل الخلاّق فلا هو ولا أحد من زبائنه جاء على ذكرها ولو بكلمة عابرة . بل كان كلّ ما عمله وفاه به ، وكل ما عملوه وفاهوا به ، كفراً بتلك النعمة ونكراناً لها . لأنّه كان هدماً لا بنياناً ، وكان محقاً لا خلقاً ، وكان قتلاً للنفس لا حياة .

يا نعمة المحراث والمعول والمنجل ،

يا نعمة الكور والسندان والمطرقة ،

يا نعمة الفأس والمنشار والإزميل ،

يا نعمة المغزل والخيط والمنوال ،

يا نعمة الشاقوف والشاقول والزاوية ،

يا نعمة القرطاس والحبر والقلم ،

يا نعمة تغزو معاقل الغاب والتراب فتسيّر السفن في الماء والهواء ،

يا نعمة تلجم البرق فتجعله مطيّة للفكر وسراجاً للعين ،

يا نعمة العمل الخلاّق – يا أكبر نعمة ! ألا اعذري الناس وجهل الناس . اعذري العامل منهم وغير العامل ، والمجتهد والكسول ، والمتفائل والمتشائم ، والمؤمن والملحد ، والمبذّر والمقتّر . واعذري حتّى الذين يترفّعون عن العمل ولا عذر لهم إلاّ أنّهم يرون في أيّ عمل حطّاً من كرامتهم وشيناً لسمعتهم. اعذريهم جميعهم ، فهم إذ يتمتّعون بك لا يعرفون حتّى اليوم بأيّة نعمة سماوية يتمتّعون .

لكم سمعت النّاس يقولون : ليتنا كالنبات في الحقل أو كالطير في الهواء . وليتنا كالسباع في البراري وكالأسماك في البحار .

ألا تبّ ما يشتهون . أتكون لهم نعمة العمل الخلاّق ويتمنّون لو كانوا لا يعملون ؟ أما عرفوا أنّها النّعمة المثلى

التي خُصّ بها الإنسان دون باقي الكائنات ، وأنّها السلّم التي بها يرقى الإنسان إلى الله — من كائن لمقدرته على الخلق حدود إلى كائن يتخلق وما لمقدرته حدّ أو نهاية ؟

أما عرفوا أن العمل الخلاّق هو الصلة الأقوى والأبقى بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وأنّه البوتقة التي فيها ينصهر كلّ النّاس في كلّ إنسان ؟ فالناس ، على كثرتهم ، جسدٌ واحد وروح واحد ، هما جسد الإنسان الأمثل وروحه . وأعمالهم ، على وفرة أنواعها ، عمل واحد ، هو عمل الإنسان الأمثل .

ها أناذا الأرقش المجهول ، الملتفّ بالصمت ، العامل في مقهىً عربي حقير في بابل القرن العشرين — ها أناذا لو شئت أن أكافىء كلّ العاملين في سبيلي من النّاس لما عرفت بماذا أكافىء ومَن أكافىء .

بماذا أكافىء الذين زرعوا وحصدوا فأكلت ؛ والذين نسجوا وخاطوا فاكتسيت ؛ والذين خلقوا الحروف والمطابع والورق فتعلّمت وقرأت وكتبت ؛ والذين زحزحوا ظلمة الليل فاستنرت ؛ والذين سيّروا السفن والعجلات فانتقلت من مكان إلى مكان ؟

وما لي أعُدّ العاملين في سبيلي وهم لا يُعَدّون ؟ فبأيّ لسان أقول بعد ذلك إن جسدي غير أجساد النّاس وروحي

غير أرواحهم ، والعمل الخلاّق قد مزج لحمي ودمي بلحومهم ودمائهم ، وأفكاري ومشاعري بأفكارهم ومشاعرهم ؟ فلا لساني لساني وحدي . ولا عيني عيني وحدي .

أيّها الضاربون في الأرض ظهراً وبطناً .
الواثدون أيّامهم وأحلامهم في الظلمات والفلوات ،
الناثرون بسماتهم ودموعهم على مفارق الطرق ،
المرضعون أمانيهم من دماء قلوبهم ،
المطعمون من عضلاتهم جياع الصخر والشوك ،
الباذرون أشواقهم في المحابر وأقواس السحاب ،
النّاشرون أعمارهم على الأمواج والرمال .
يا سجناء أقفاص المصارف والمصانع ،
الدافنون أبصارهم وأسماعهم في بطون السجلات ،
والمذيبون أدمغتهم أرقاماً حمراء وسوداء ،
يا مَن أغانيهم صرير الدواليب وهدير المطامع ،
ورقصتهم رقصة الفلس والدينار —

أيّها العاملون كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً ، مهما يكن عملكم وحيثما قضت الأقدار أن يكون — ههنا عامل حقير في مقهًى حقير يمدّ لكم يده ، ويفتح قلبه ، ويعرف قيمة العمل فيبارك ما تعملون .

وما هي قيمة العمل ؟

هي أعمار تنحسر عن أعمار ، وآمال تمهّد السبيل لآمال ، وأهداف تتصل بأهداف . فلا انقطاع في العمل الخلاّق حتى يكون للإنسان ما يشاء من الانطلاق في الخلق والإبداع دونما قيد ودونما حدّ .

وعمل يمتدُّ منذ أن كان الإنسان وتتشابك أجزاؤه تشابُك الخيوط في النسيج ، أمّا خيوطه فحيوات تنطوي على حيوات ، لَعَمل لا يثمّن بمال أو عقار . فهو فوق كلّ الأثمان . وما كان لا يثمّن بمجموعه كان كلّ جزء منه أثمن من أن يثمّن . وأيّ إنسان ليست حياته بعضاً من عمل الإنسانيّة الشامل ؟

فوا أسفي على النّاس يقيمون أثماناً متفاوتة لكلّ شيء ، ولكل عمل ، ولكلّ إنسان . وإذ تعبث بها الحياة التي لا تثمّن والتي تأبَى الحصر في الجداول والمعادلات والمعاهدات ، تضطرب قلوبهم ، وتتشوّش أفكارهم ، وتتوتّر أعصابهم ، وتستيقظ أحقادهم ، وتفلت شهواتهم من زرائبها . فتغلي مراجلهم ، ويفور ما فيها من خساسة ورجاسة . وإذا الذين يعملون معاً عمل الإنسانيّة الخلاّق ينسون أنّهم لهدف واحد يعملون ، فيتقاتلون ويتطاحنون ويتذابحون . وإذا المنجل سيف ، والمعول بندقيّة ، والقلم مدفع ، والحبر بارود ، والكلام

رصاص . وإذا العمار دمار ، والنور ظلام ، والحياة موت أحمر .

لو ألقت البشريّة مقاليدها إليّ لجعلت منها جيشاً واحداً منظّماً كأحسن ما تُنظّم الجيوش ، ومدرّباً خير تدريب ، ومسلّحاً بأفضل ما استنبطه الإنسان حتى اليوم من الأدوات والآلات والحيل لتسهيل معيشته على الأرض . ولأعلنتها حرباً شعواء على الأرض فوصلت قاصيها بدانيها ، وجعلت بمجاهلها معالم ، وذلّلت جبالها ووعورها وصحاريها ، وفجّرت ينابيعها. فكسوت عاريها بالغاب والبساتين والرياحين ؛ ولقّحت عقيمها بالخصب ، ونثرت في أرجائها المزارع والدساكر ، ومحوت الحدود منها والسدود ، وقلت لأبناء الأرض :

« اسرحوا وامرحوا وكلوا واشربوا من طيبات ما خلقت أيديكم . لكم الغُنْم وعليكم الغُرْم . وأنتم في الاثنين سواسية . وما دمتم جنوداً في خدمة العمل الخلاّق وتحت لوائه فلا يهتمّنّ أحد بماذا يأكل ويشرب ويكتسي وأين يسكن . فذلك كلّه موفور لكم بفضل القوّة الخلاّقة فيكم وبفضل حنوّ الأرض والسماء عليكم . »

وعلامَ لا يكون النّاس جنوداً يحارب بعضهم في سبيل بعض بدلاً من أن يحارب بعضهم بعضاً ؟ وعلامَ لا تكون الخدمة إجباريّة فتطول وتقصر ، وتمتد ساعات العمل في النهار

وتتقلّص حسبما تقضي الحاجة ؟ ثمّ غلامَ لا ترافق العاملين ، أينما كانوا ومهما كان عملهم ، المدارس والمصحّات والموسيقى وكل أسباب الترفيه والتشجيع والتوجيه الذي من شأنه أن يعظّم العامل وما يعمل ؟ وعندما تتحد أيدي النّاس وأفكارهم وقلوبهم في عمل واحد ، ثمّ يُنفق نتاج ذاك العمل بالمساواة على الجميع مثلما تُنفَق مؤونة الجيش على الجنود ، فأيّ مبرر بعدُ للتزاحم والتحاسد والتكالب والتناهش ؟

إلاّ أن النّاس لا يعقلون . ولذلك يتنابذون ولا يتعاونون ، وعلى فضلات ما تخلقه أيديهم من بركات الأرض والسماء يتقاتلون .

يا نعمة العمل الخلاّق — يا أكبر نعمة ! اعذري الأرقش واعذري النّاس أجمعين . واجعلينا بخيراتك جديرين .

الخميس

ما هذه السكرة التي سكرتها اللّيلة وبأيّ الكلام أصفها ؟ إنّها لتجلّ عن كلّ وصف . ألا ليتني لم أصحُ منها .

وبماذا وكيف سكرت ؟ — لستُ أدري .

لعلّها ما يدعونه « غبطة الوجود » انسكبت عليّ بغتة انسكاب أشعّة الشمس على كرة من البلّور . فأحسستني كياناً شفّافاً مترعاً حرارة ونوراً . فلا أنا من لحم ودم . ولا أنا

سجين زمان ومكان . ولا أنا أنا . فكأنّ الكائنات منظورها وغير منظورها قد ذابت فيّ وذبت فيها . فالشمس والقمر والنجوم منّي وأنا منها ، وهي فيّ وأنا فيها . ومثلها الأرض بكل ما على سطحها وفي جوفها وجوّها من الغرائب والعجائب .

الكل ذوب لا يوصف من محبّة لا توصف . والشعور بتلك المحبّة لا ينقاد إلى تعريف أو تحديد . إنّه الغبطة بعينها . بل هو الغبطة فوق كلّ غبطة . غبطة لا يحلّق إليها فكر ، ولا يطالها خيال ، ولا تعلق بأذيالها أشباح هموم أو شكوك أو غموم .

ذُهلت عن نفسي فما أعرف أدقيقة طال ذهولي أم ساعة أم دهراً . ويا ليته كان ذهولاً لا نهاية له .

ولو أنّني ما عشت من حياتي غير تلك الدقيقة لاكتفيت بها حياة كاملة .

ولو أن حياتي ما كانت غير طريق مفروش بالشوك يؤدي إلى تلك الدقيقة لرضيت بها وباركت ربّ الحياة الذي متعني بها .

تباركتِ حياةٌ جمالها يُذهل الإنسان عن نفسه .

وما أدراك يا أرقش الخير أنّ ذهولاً طرأ عليك الليلة فتذوّقت فيه « غبطة الوجود » ليس بشيراً بذهول أطول فأطول وأعمق فأعمق حتّى تبلغ الذهول السرمديّ ؟

اللّهم ، أذهلني عن نفسي !

السبت

إذا كان الفرق عظيماً بين شيئين شبّهوه بالفرق بين الأرض والسماء . والفرق بين ما أنا فيه اليوم وبين ما كنت فيه منذ يومين لأعظم من الفرق بين الأرض والسماء .

كنت في ذهول عن الأرقش فتذوّقت « غبطة الوجود » . وأنا اليوم في ذهول عن كل ما في الوجود إلا الأرقش فلا أتذوّق غير الحيرة والمرارة .

لله ما أوسع الإنسان وأضيقه ، وما أبعد مداه وأقربه ، وما أسرع فكره وأبطأه !

كلّني اليوم اضطراب وتشويش وقلق . ولو سألني سائل عن السبب لما أحَرْت جواباً .

لكأنّني حفنة من القمح والحسك والتراب تصفّقها يد المغربل في الغربال . أو كأنّني القِدر ليس فيها غير الحصى ومن تحتها نار مشبوبة السعير .

كنتُ في ما مضى إذا تعكّر صفو عزلتي عزوته إلى انقسام في نفسي ما بين أرقشين — أرقش معلوم وأرقش مجهول . واليوم كلّني أرقش مجهول . بل لو شئت أن أعدّ كلّ ما فيّ من أراقش مجهولين لما استطعت . فهم يطلّون عليّ من نوافذ لا تحصى . وليس بينهم وجهان متشابهان . ولا هم يكلّمونني

بلسان واحد ولغة واحدة . ولا أنا أفهم ما يقولون وما يطلبون . فكأنّني القلعة المحاصَرة . وكأنّ هؤلاء الأراقش جيش لا توحّدهم قيادة ولا هدف . وكل جندي يحاول أن يقتحم القلعة عنوة ويحتلّها قبل سواه . فالأمر ما بينهم فوضى وهم في سباق .

وماذا تبتغون من هذه القلعة أيّها المحاصِرون ؟ وماذا تظنّونكم واجدين فيها من بعد أن تقتحموها وتحتلّوها ؟

إنّكم لن تجدوا في خراباتها غير الخراب . ولن تظفروا من مواقدها بغير الرماد . أمّا اللّهيب فما يزال في سبيله إلى الله .

ستجدون فيها حفنة من السنين تقمّطت بظلمة ماضٍ كفيف وبريق آتٍ مبصر . فلا هي عتمة ولا هي نور . ولا هي معرفة ولا هي نكرة . ولعلّها عتمة تستنير ، ونكرة تتعرّف . أمّا اسمها فالأرقش .

هاجِموا ، هاجموا . فإمّا تدكّون حصوني أو أدكّ حصونكم .

الجمعة

وحدي .

أجل . وحدي وما من بشر غيري على وجه البسيطة .

لقد فني الكلّ ، وأصبحت الأرض مقبرة هائلة لبني الإنسان . فأقفرت مساكنها ودروبها وحقولها من كلّ من يدب على رجلين ويحتال على معاشه بفكره ولسانه وخياله .

لا أم تحبل وتلد وترضع ، ولا طفل يحبو ويلثغ ويبكي ، ولا أب يعمل ويجني ويبني .

لا سفينة في البحر والجو ، ولا سيارة أو قطار أو قافلة على اليابسة .

لا عابد في معبد ، ولا طبيب في مستشفى ، ولا دارس في مدرسة .

لا فأس في غابة ، ولا منجل في كرم ، ولا معول في حقل .

لا دخان معمل ، ولا قعقعة دواليب ، ولا صفير صفّارات .

لا شاعر ينظم ، ولا رسّام يرسم ، ولا كاتب يكتب .

لا من يبكي ، ولا من يضحك ، ولا من يغنّي .

لا من يبيع ولا من يشتري .

لا من يزاحِم ولا من يزاحَم .

لا من يضارِب ولا من يضارَب .

لا من يحارِب ولا من يحارَب .

لقد فني الكلّ ولم يبقَ غيري شاهداً بفنائهم . وما أفنتهم الزلازل والأعاصير ، أو الوحش ، أو الحشرات ، أو

المجاعات . وأفنتهم الحروب والأوبئة التي تولّدها الحروب .

لقد أفناهم التهالك والتكالب على خيرات الأرض . وها هم قد قضوا جياعاً وعطاشاً وعراة . قضوا ممزَّقين بأطماعهم ، مشويّين بأحقادهم ، مترمّدين بشهواتهم . والأرض ما تزال تفور بالبركات لا تستنفدها الفصول والدهور وربوات الراضعين من درّها الحنون . وهي هي — الأم الرؤوم ، المطعمة بنيها من لحمها ودمها بغير حساب ؛ المرنّمة في أذن الأبد ترانيم الأزل ؛ السالكة سبيلها النيّر ما بين القوافل النيّرات ؛ الحاملة أثقالها في الفضاء بمثل الطمأنينة التي تحمل بها العصفورَ في الهواء ؛ المستسلمة أبداً عن فهم وعن رضى للمشيئة التي كوّنتها رحماً رحبة ولقّحتها بلقاح الحياة .

وهذه الأرض هي اليوم ميراثي وحدي . فماذا عساني أن أصنع بما ورثت ؟

ماذا عساني أن أعمل بذهب الأرض وفضّتها ، وألماسها وياقوتها ، وبما تنبته من حبوب وبقول ، وفاكهة ولحوم ؟ وأراني لو كانت لي أيدٍ وأفواه ومِعَد وعيون وأنوف بغير عدّ لما استهلكت غير اليسير اليسير من زادها . فكيف بعبيرها ومحبّتها وجمالها ؟ وهل في الكون ما يستطيع أن يستهلك عبير الأرض ومحبتها وجمالها ؟

ألا انهضوا من لحودكم أيّها الملحِدون . لقد كفرتم

بالأرض وما كفرت بكم الأرض . وها هو الأرقش ، وقد أصبح الوريث الأوحد من بني الإنسان للأرض ، يتنازل لكم عن ميراثه . خذوه ولا تقتسموه . فهو للكلّ لا للبعض .

فأنتم متى اقتسمتموه اقتسمكم . فكنتم ميراثه بدلاً من أن يكون ميراثكم . وكنتم زاده بدلاً من أن يكون زادكم . كلوا واشربوا واشبعوا لا بما تمضغه أسنانكم وتستوعبه بطونكم لا غير بل بما تمضغه أسنان إخوانكم في الناسوت وشركائكم في الأرض وبما تستوعبه بطونهم . فليس أمضّ من جوع الذي لا يشبع إلاّ إذا جاع جاره . ولا أقسى من عطش الذي لا يرتوي إلاّ إذا عطش شريكه في الماء . ولا أمرّ من موت الذي يحاول أن يحيا بموت مَن جعلته الحياة دعامة لحياته . وأيّ النّاس ليس دعامة لحياة كلّ إنسان ؟ إنّما تحيون بعضكم ببعض . فكيف لا تحيون بعضكم لبعض ؟ وإنّما تَرضعون كلّكم الحياة من ثدي الأرض . فكيف لا تخجلون من أن تمزّقوا الثدي الذي منه ترضعون ؟

وحدي !

ومن حولي خرائب المدنيّة المنكوبة ببنّائيها . ويا لها من خرائب عامرة بالذكريات ، آهلة بأشباح الفقر والترف والذلّ

والصّلف ، والحزن والفرح ، والإيمان والإلحاد ، والاستسلام والعناد ، والولادة والموت ، والقناعة والجشع ، واللذّة والوجع .

خرائب صمّاء ، بكماء ، عمياء . وكانت تسمع بملايين الآذان ، وتنطق بملايين الألسن ، وتنظر بملايين العيون . فكأنّها ما سمعت غير الموت ، ولا نطقت بغير الدمار ، ولا أبصرت غير الفناء . وكان حريّاً بها أن تسمع الحياة ، وتنطق بالعمار ، وتبصر البقاء .

لقد ذلّت العاتية ، وها هو أنفها في الرغام .

لقد انسحقت المتجبّرة ، وها هي أبراجها السامقة تعانق التراب .

لقد انفضحت الفاسقة ، وها هي وعشّاقها طعام للدود .

تشقّق جسد العاهر وتفسّخ وتفشّت فيه البثور والدمامل، فسال منه الصّديد ، وانتشرت روائح النتن والفساد . فواعجبا للنّسيم لا يَتَنَحْنَحْ ، وللأرض لا تتقيّأ أمعاءها !

اختنق صوت الغانية في حنجرتها ، وتشعّث المزمار الذي كانت تسحر بأنغامه روّاد حاناتها . فواعجبا للشمس لا تنظم المراثي ، وللبدر لا ينثر الدموع !

انكسرت القوس وتحطّمت السهام التي خلقتها المغامرة الكبرى لتصطاد بها الهناء لأبنائها فما اصطادت لهم إلاّ الشقاء .

فواعجبا للطير والوحش والسائمة ليست في عيد وفي مهرجان وقد شُلّت اليد التي وُجدت لتبني الحياة فما كان يُغريها شيء مثلما يغريها هدم الحياة في الأحياء .

انطوت المدنيّة الفاحشة وطوت عشّاقها في أحضانها .

ناموا أيّها العشّاق ، ناموا . فأنتم لفرط ما ابتُليتم به من العشق ما تذوّقتم بعدُ لذّة النوم .

ناموا ، وأريحوا الأرض منكم واستريحوا ، فأنتم لفرط ما أجهدتم الأنفس في إرضاء معشوقتكم ما عرفتم بعدُ طعم الراحة .

إنّما الأرض أحنّ عليكم منكم . ولكنّكم ستنهضون من نومكم الطويل عارفين قيمة الأرض ومعنى اليقظة .

ناموا ، ناموا في التراب . عساكم تسمعون وتفقهون ما يبوح به التراب للتراب .

ناموا حيث الديدان لا تشبع ولا تنام . لعلّكم تجوعون إلى غير ما يجوع إليه الدود وتشبعون بغير ما يشبع .

ناموا ، مكفّنين بالصمت والظلام . لعلّكم تدركون ما في الصمت من وحي وما في الظلام من نور .

ناموا ، ناموا ، فالأرقش الذي لا ينام يهدهد نومكم بالأغاني .

ناموا ، ناموا ، ناموا . . .

ولكنّ قشعريرة تمشي في بدني إذ أتخيّلني الآدميّ الأوحد

على وجه الأرض . لقد أحببت عزلتي وسكوتي يوم كان من حولي بشر أعتزلهم وألجم لساني عن مكالمتهم . أما وقد أصبحت وحدي ولا شبيه لي في الأرض من جنسي فعزلتي انقلبت وحشة وسكوتي سجناً ووجودي غربة . لا . ما أحسست مثل هذه الغربة من قبل . كنت أراني غريباً عن النّاس وقريباً من كلّ ما في الطبيعة . واليوم أراني غريباً عن كلّ ما في الطبيعة وقريباً من النّاس .

أهي العادة ؟ أهي العين وما ألِفت ، والأذن وما ألِفت ، والأنف وما ألِف ؟ لست أدري . ولكنّ الأرض ليست أرضاً بغير الإنسان . فهي كالبيت يعجّ بالأولاد يلعبون ويتصايحون ويتشاجرون ويعبثون بكلّ ما في البيت فتشعر أنّه بيت يفيض حيويّة وحياة . أمّا إذا أقفر ذلك البيت من الأولاد فكأنّه أقفر من الحياة .

لا . ليست الأرض أرضاً بدون الإنسان يعبث بما فيها إذ يعبث بنفسه ، ويخاصم وينازع ، ويحبّ ويكره ، ويبني ويهدم . فالنّاس أولاد الأرض الذين ما أدركوا رشدهم بعد . فلنحاسبهم على قدر مداركهم لا أكثر .

وحدي ؟

ومعي اللّيل وما يلفّه الليل ، والنهار وما ينشره النهار .

ومعي الإيمان بربّ النهار والليل ، وبنفسي ، وبالإنسان المتطلّع أبداً إلى ما هو أبعد من الإنسان .

* * *

ما أعرف كيف خطر لي الليلة أن أتخيّل انقراض الجنس البشري من الأرض . والغريب أن ذلك الخيال تسلّط عليّ إلى حدّ أنّه لم يبقَ في استطاعتي التخلّص منه . فكان ما كان وكتبت ما كتبت .

والآن وقد أفلتُّ من قبضة ذلك الخيال أعود فأسأل نفسي : مِن أين جاءني وهل يمكن أن يأتيني شيء من لا شيء ؟

ما أدراك يا أرقش أن ما تخيّلته الآن ليس حقيقة مرسومة في خريطة الزمان الآتي ، وأن قوّة كامنة فيك كمون الشرار في الحطب ما اخترقت حجب الزمان البعيد فكشفتْ لك ما كشفَتْ وأوحت إليك بما أوحت ؟ وهل من مبرّر لاعتقادك واعتقاد سواك أن الأرض ستبقى مسكن الإنسان إلى الأبد ، وأن الإنسان سيبقى إنساناً إلى نهاية الزمان ؟

الثلاثاء

سألت نفسي اليوم :

« ماذا تريدين يا نفسي ؟ »

فأجابتني :

« أُريد أن أعرف . »

فقلت :

« وماذا تريدين أن تعرفي ؟ »

قالت :

« كلّ شيء . »

قلت :

« ولماذا تريدين أن تعرفي كلّ شيء ؟ »

أجابت :

« لأنّني أريد أن أتحرّر من كلّ شيء . »

قلت :

« ألا تكون حريّة بغير معرفة ؟ »

قالت :

« بل تكون عبوديّة . »

قلت :

« ألا تكون حياة بغير حريّة ؟ »

قالت :

« بل يكون موت . »

الأربعاء

سكوتٌ مثمر .

الخميس

سكوتٌ قاحل .

الجمعة

سكوتٌ واجم .

الاثنين

خرجت اليوم بعد نصف اللّيل قاصداً البحر . وما إن ابتعدت عن المساكن المأهولة وبلغت عطفة مظلمة في الطريق حتّى أدركتني سيارة ترجّل منها اثنان ووثبا عليّ ثمّ راحا يوثقان يديّ بحبل كان معهما . وإذ سألتهما ماذا يريدان منّي أجابني أحدهما بصوت خشن خافت : « نريدك أنت . وإيّاك أن تنبس بكلمة . » واتفق أن سمعا هدير سيارة تقترب منّا فتركاني وشأني ثمّ هرولا إلى سيارتهما وانطلقا بسرعة الريح . وكانت السيارة تشبه سيارة سنحاريب .

ربّي وإلهي ! سمعت وقرأت عن اللصوص وقطّاعي الطرق . هل ضاق بهم عيشهم فلا يتّسع لهم إلاّ إذا ضيّقوا

العيش على سواهم ؟ وهل بلغ بهم الفقر أن يطلبوا الغنى من ثروة مَن كان في مثل فقر الأرقش ؟

حقّاً إن عالم النّاس لعالم غريب عجيب .

الأحد

يا شفقَاً لفّني بغلالة بيضاء — سوداء ، فلا أنا في النور ولا أنا في الظلام . لا أنا نهار متوهج ولا أنا ليل دامس . تباركتَ من شفق ، وتبارك السحر سحرك .

بربّك قل لي أيّها الشفق : أمحتوم على الأرقش أن يكون همزة وصل بين اللّيل والنهار؟ أما من ظلمة لا نور فيها ، أو نور لا ظلام فيه ؟ إذن ، ما هذا الصوت الصارخ في أعمق أعماق وجداني بأنّني لا بدّ بالغ يوماً لا يحتويني فيه نهار أو ليل بل أكون أبعد من متناول الاثنين ؟

لقد لمحت وجهكِ أيّتها الحريّة فعميت . وشممت طيبك فسكرت . ووجهك من نور ترتدّ عنه كليلةً عين النهار . وطيبك من مسك ما تعطّر بمثله قلب الليل . ومَن لمح وجهك مرّةً واحدة حجب عينيه عن كل وجه آخر . ومن تعطّر بطيبك مرّة واحدة سدّ أنفه دون كل طيوب الأرض .

خذي بيد الأرقش أيّتها الحريّة وانتشليه من قبضة الليل والنهار .

ضاع كلّ شيء . . .

ضاع الأرقش . . .

ضاعت عزلته المؤنسة ودنياه الفسيحة الحافلة بالرؤى .

ضاعت المعرفة التي ينشد وحلّت محلّها المعرفة التي لا تعرف ، ولا تعرف أنّها لا تعرف : معرفة النّاس لأحسابهم وأنسابهم ومراتبهم ومطامعهم ونُظُمهم وتقاليدهم .

اليوم « عرفت » مَن أنا — أين وُلدت ، ومَن ولدني ، وما اسمي ، وأين عشت ، وماذا فعلت ، وبمن اتصلت ، ومن أحببت وأبغضت من النّاس . . .

تذكّرت . ويا ليتني ما تذكّرت . . .

ما كان أسعدني أيّام نسيت كلّ ذلك !

ما كان أقوى جناحيّ أيّام لا ماضٍ يشدني إلى أسفل ، ولا ذكريات تسمّر فكري وقلبي بالتّراب !

ما كان أفسح عالمي أيّام حدوده الأزل والأبد ، وأيّام أنا روح هائم بالروح السرمديّ .

أمس كان هذا المقهَى أرحب من الأرض والسماء .

واليوم السماء والأرض أضيق من هذا المقهَى .

مات الأرقش الحيّ وبُعث الأرقش الميت . مات الأرقش

الحيّ منذ أن تذكّر الأرقش الميت ، قام شكيب فنام الأرقش . تبّاً لها من ذاكرة لا يموت فيها شيء ! . .

قد ينسدل الستار على القليل أو الكثير منها ولكنّه لا يمحو نقطة ممّا وراء الستار .

مهما يكن الستار كثيفاً وثقيلاً فلا بدّ من يوم ترفعه فيه عين اليد التي سدلته . أمّا « الوسيط » فقد يكون كلمة عابرة أو شيئاً تافهاً .

و« الوسيط » في رفع الستار المنسدل على ذكريات ماضيّ ما كان أكثر من مقال في عدد من جريدة إسبانيوليّة وجدته اليوم على طاولتي فقرأته . ولا شك في أن يد سنحاريب وضعته هناك .

اليوم « عرفتك » يا سنحاريب . عرفتك كما يتعارف النّاس . وليتني ما عرفتك . ليتك بقيت في ضميري سنحاريب الذي عرفته في هذا المقهَى — لا أكثر .

قتلتني يا سنحاريب .

قتلتني يا أخي ويا صديقي ويا رفيقي سليمان .

طرحتني من حالق . فأنا الآن مرضوض العظم والعصب والفكر والقلب واللّسان .

أيقظتني من غفلة واعية إلى يقظة غافلة .

أأقول : قاتلك الله ؟ بلى . بلى . قاتلك الله يا قاتلي .

لا . لا . بل سامحك الله على قدر محبّتي لك وكرهك لي .
وأيّ الذنب ذنبك وأنت إنسيّ كباقي النّاس ، وأنا جنّيّ وإنسيّ معاً ؟ وهل للإنسيّ أن يفهم الجنّيّ ؟

كيف للإنسيّ أن يفهم لماذا يذبح الجنّيّ حبّه بيده ؟

ذبحتها ، ذبحتها ، ذبحتها . . .

ذبحت حبّي بيدي . فما شأن النّاس معي ؟ . .

ولكنّك تضع العِرض فوق الحبّ يا سليمان ، وأضع الحبّ فوق كلّ شيء .

وقد ثأرتَ لعِرْضك . وأيّ الثأر ثأرك ؟

نبشت الأرقش من قبره ثمّ طعنته في الصميم !

أمّا الأرقش فمن يثأر لحبّه ؟

وممّن يثأر الأرقش لنفسه إلاّ من نفسه ؟

أنا الذابح والمذبوح . ذبحتُها فانذبحتُ .

بيدي ، بيدي هذه ذبحتُ حبّي . لأنّه فوق ما يتحمّله جسدي ودون ما تشتاقه روحي . وأيّ النّاس أدرى منّي بما يتحمّله جسدي وما تشتاقه روحي ؟ فما شأنهم معي ؟

ارفعوا عنّي أكفّكم ، واحجبوا لحاظكم ، والجموا ألسنتكم .

ارتدّوا ، ارتدّوا .

ما مات الأرقش بعد . لا . ما مات الأرقش .

أين سهامكم ؟ أين بارودكم ؟ أين رصاصكم ؟
قم يا أرقش ، قم ، ولا تهولنّك كثرة الجيوش .
قم واصرخ بهم : هاتوا سهامكم وبارودكم ورصاصكم .
إنّي ضباب تدرّع بالضباب . فإن استطعتم أن تصرعوا الضباب بسهامكم وبارودكم ورصاصكم ربحتم المعركة . وإلاّ فالنصر لي . ولكم الخيبة والهزيمة .
لا تولولي يا أمّاه . لا تنُح يا أباه .
وارقصي يا قطرات دمٍ زكيّ أرقتها بيدي .
ترنّحي يا أحشاء الأرقش برقصة الدم المعطار .
واقضِ أيّها الحبّ بعدلك للأرقش أو عليه .
للأرقش الذابح
وللأرقش المذبوح .
للأرقش المترمد
وللأرقش الملتهب .
أيّها الحبّ اقضِ بعدلك .

« انتهت مذكرات الأرقش »

تكملة

جريمة لا سابقة لها في الجرائم

عريس يذبح عروسه في الليلة الأولى من شهر العسل
أهي الغيرة أم الجنون أم ماذا ؟

ترجمة المقال الإسباني المذكور في الفصل الأخير من مذكرات الأرقش والمؤرخ في ٢٦ حزيران ١٩١٦

« رُوِّعت العاصمة في صباح اليوم بخبر جريمة ولا كالجرائم. ولعلّها الأولى من نوعها . ونرجو أن تكون الأخيرة .

لقد ألفنا أخبار القتل والنهب والانتحار . أمّا أن يذبح شاب عروسه بيده ، وفي الليلة الأولى من شهر العسل ، وأن يذبحها من فرط حبّه لها ، فأمر ما سمعنا بمثله ولا قرأنا عن شبيهه من قبل .

في ضاحية × من ضواحي العاصمة جالية سوريّة—لبنانيّة لا يستهان بها . فيها التاجر الثريّ ، والصناعي القدير ، والمحامي

والصحافي والطبيب . ولها على الضاحية أيادٍ بيضاء . فقد ضربت بسهم كبير في تعميرها ورفع شأنها بين ضواحي العاصمة .

ومن أبرز الأسر شأناً وأوفرها ثروة وأعرقها نسباً في تلك الجالية أسرتا نعمان وحاريب . وبين الأسرتين روابط صداقة قديمة ومتينة . أمّا الأولى فتتألّف من والد ووالدة ووريث وحيد في ميعة الشباب ، هو السيّد شكيب . والمعروف عنه أنّه آية في حدّة الذهن والذكاء ، فقد أنهى دروسه الجامعيّة بتفوّق أدهش رفاقه وأساتذته . ولكنّه غريب الأطوار إلى حدّ بعيد ، وعلى جانب عظيم من حسن السيرة والسريرة .

وأمّا أسرة حاريب فقوامها أرملة وولداها : السيّد سمعان ن. حاريب والآنسة نجلا حاريب . والسيّد سمعان مهندس له شهرته . وهو ما يزال في عنفوان العمر . وبينه وبين السيّد شكيب نعمان أخوّة يندر أن تجد لها مثيلاً حتى بين أخوين من لحم واحد ودم واحد .

وكان من هذه الأخوّة أن تقرّب شكيب من نجلا وتقرّبت منه . فكان حبّ وكان هيام . وكانت خطبة وكان زفاف . وكان فرح عظيم في الأسرتين ومهرجان كبير في الجالية . والآنسة نجلا ، بشهادة الذين عرفوها في الحياة والذين أبصروها في الممات ، تحفة من تحف الجمال النادرة في الأرض .

واختار العروسان أن يمضيا الليلة الأولى من شهر العسل

في فندق y وهو أفخم فندق في العاصمة . ثمّ كان الصباح فما خرجا من غرفتهما . وكان الظهر فما رآهما أحد في مطعم أو في صالون . وكان المساء كذلك . وقد اعتادت إدارة الفندق أن لا تزعج عروسين جديدين في غرفتهما . ولكنّ شكّاً بدأ يخامرها في أمر السنيور شكيب والسنيورة نجلا عندما كادت اللّيلة الثانية أن تنتصف ولم يسمع أحدٌ لهما صوتاً .

فأرسلت الإدارة مَن يطرق الباب عليهما ، ولكن بغير جدوى . عندئذ أرسلت في طلب الشرطة ، ورجال الشرطة أمروا بفتح الباب عنوة . وإذا بهم يفاجأون بجثة العروس ملقاة على السرير في غلالة حريريّة بيضاء . والغلالة والسرير مضرّجان بالدم وإذا بالعروس مذبوحة من الوريد إلى الوريد . أمّا العريس فما وقعوا له على أثر ما خلا ورقةً صغيرة خُطّت عليها العبارة التالية :

« ذبحت حبي بيدي. لأنه فوق ما يتحمله جسدي ودون ما تشتاقه روحي . »

وقد تبيّن من الفحص أن الخط خط شكيب نعمان . أمّا حقائب العروسين ومجوهرات العروس فلم يُمَسّ منها شيء .

ورجال التحرّي وكذلك شقيق القتيلة السيّد س . ن . حاريب دائبون في التفتيش عن العريس . ولا شكّ عندهم في أنّه القاتل . ولكنّهم حتّى الآن ما اهتدوا إلى سبب معقول للقتل . فلا أثر لغيرة ، ولا لخلاف ، ولا لخصام . بل كل

القرائن تدل على أن العروسين كانا على جانب عظيم من الأمانة والإخلاص المتبادلين ومن التعلّق واحدهما بالآخر .

حقّاً إنّها لجريمة تحيّر حتّى رجال التحرّي . وسنوافي القراء بما نلتقطه من أخبارها في حينه » اه .

إلى الأرقش

الآن ، وقد مسحت قلمي من مذكّراتك يا أرقش ، تتراجع بي الذاكرة اثنين وثلاثين عاماً إلى الوراء — اثنين وثلاثين لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً . فأراني وحدي أطوف شوارع مدينة ليست مدينتي ، وفي بلاد ليست بلادي . والليل فاحم القلب، مُصقَع النّفَس ، نديّ العين . وقد التفّ بعباءة كثيفة من الضباب . فلا نجم يغامز نجماً ، ولا كوّة يطلّ منها ولو شعاع ضئيل من النور .

كنت أمشي على غير ما هدى وإلى غير ما هدف . ولا عصا في يدي أتحسّس بها طريقي في الظلام . لقد كانت عيناي مفتوحتين ، أمّا قلبي فكان مغلقاً ، وكان كمن يفتّش ولا يعرف عمّاذا وأين يفتّش . ولو أن سائلاً سألني في تلك الليلة : « إلى أين ؟ » لما استطعت أن أجيبه بغير الصمت . أو لعلّني ، دفعاً لفضوله، كنت أجيبه بقولي: « إنّي أفتّش عن الصباح . »

وأوشك الليل أن يفنى . وإذا بقبضة من الأشعة المؤنسة تخترق الضباب وتكشح العتمة من أمام عينيّ وقدميّ . فأبصر شبحاً يسير نحوي بخطى وئيدة وفي يده مصباح . وكنتَ ذلك

الشبح يا أرقش .

حييتك فرددت التحيّة بأحسن منها . وشعرتُ في الحال كأنّك منّي وأنا منك . وما كنتُ على خطإٍ في ما شعرت . فقد كنتَ مثلي تفتّش في ذلك الليل عن الصباح . وكنتَ ، ومصباحك في يدك ، بلا مأوى . وكان لي مأوى ولا مصباح . فوافَقْتني على الجمع ما بين مصباحك ومأواي . ومعاً ذهبنا إلى غرفتي الوديعة التي كانت باردةً فدفئتْ ، وعابسةً فابتسمت ، وضيّقةً فأصبحت أوسع من الفضاء .

وتوالت الأيّام والليّالي ، وأنت في فكري وقلبي وخيالي ، تحدّثني بما لم يحدّثني بمثله سواك ، وتقصّ عليّ ما لم يقصّه عليّ قبلَ لسانك لسان . حتّى أخذَتني نشوة من روحك فرحت أدوّن ثمّ أنشر بعض ما عرفته منك وعنك .

كان ذلك في أواخر عام ١٩١٧ . وفي أوائل العام الذي تلاه دعاني داعي الحرب . وما كان أشدّ كرهك وكرهي له ! ولكنّ دعوته ما كانت تقبل الردّ . فأُرغمت على الامتثال لها . وهكذا سلختني الحرب عن قلمي وأوراقي وعن مذكراتك ، ولم أكن دوّنت ونشرت منها غير اليسير اليسير .

سلختني الحرب عن مذكّراتك . ولكنّها ما سلختني عنك . فقد رافَقْتني في أشد الساعات سواداً ، على الجبهة وخلفها . رافقتني ثلاثة عشر شهراً جنديّاً بسيطاً يحمل على

كتفيه آلة الحرب الساحقة بأثقالها الجهنميّة ، ويتحمّل فكره وقلبه الفتيّان غطرسة الرؤساء وانسحاق المرؤوسين . فكنت لي خير السند ونعم الرفيق .

عدنا من الحرب ، ولكنّ نشوتي الأولى بروحك ما عادت إليّ . فما عاد قلمي إلى مذكّراتك . ومرّت من السنين ثلاثة عقود — وما أسرع ما مرّت ! وظنّ النّاس أنّي نسيتك . فراح البعض يذكّرني بك ويلحّ عليّ في نشر مذكّراتك حتى النهاية . وما كان لهم أن يعرفوا أن ما بيني وبينك أقوى من السنين وأبقى من الأرض . ولا كان لهم أن يعرفوا مقدار حبّي لك والتصاقك بي . وإنّه لمن الخير لي ولك أن يجهل النّاس مقامك عندي ومقامي عندك .

ولكنّي حسبت نشر مذكّراتك بكاملها دَيناً لك في عنقي . مع العلم أنّك ما كتبتها للنشر ، وأنّك ما أدنتني لتستوفي . وها أنا أمسح قلمي منها ، وأُطلقها في سبيلها . أمّا أنت فلا أمسح منك قلبي ، ولا أُطلقك من ضميري . ولو أنا شئت ذلك لما استطعت . غير أنّي ما شئته ولن أشاءه .

وإنّي لأعلم ، مثلما تعلم ، أن ما دوّنته من مذكراتك ما كان غير نَزْرٍ من ينابيع دفّاقة تفجّرت في أعماق وجدانك ، ولا كان أكثر من أصداء خافتة لأشواق روحك العامر بالرؤى . وما العمل ، والأشواق والرؤى لا بدّ لها من ترجمان ،

والتّرجمان لا بدّ له من قلمٍ أو من لسان ؟

والسلام عليك ، أينما كنت ، وكيفما كنت .

« فاغفر ولا تستغفر . »

بسكنتا ــ لبنان في ١٠ تشرين الأوّل سنة ١٩٤٩

ميخائيل نعيمه

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهبِ الريح
دروب

أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)
The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve Other Stories.